في رحاب القرآن

تفسير فضيلة الأستاذ الإمام

بيّوض إبراهيم بن عمر

رائد النهضة الاصلاحيّة بالجنوب الجزائرى

نقله عن الشريط المسجّل تلميذه: عيسى محمّد الشيخ بالحاج

ولخّصه وأخرجه تلميذه: الأستاذ ناصر محمّد مرموري

الطبعة الأولى

طبع بالمطبعة العربيّة بمدينة غرداية

في رحاب القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

نحمدك يامن علمت بالقلم علم الانسان ما لم يعلم، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد،: فمن رحمة الله بعباده أن بعث فى الاميين رسولا يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين. ذلك الكتاب هو القرءان الكريم دستور الاسلام ومصدر تشريعه الاول: من قال به رشد، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم.

تحدى به فصحاء العرب ومصاقعهم فخضعت رقابهم لاسلوبه المعجز وبيانه الساحر وحكمته البالغة وما اشتمل عليه من أخبار الاولين وأحوال الآخرة فألقوا اليه السلم مذعنين.

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم آياته ومعانيه وبين أحكامه وحكمة نزوله بأقواله وأفعاله وتقريراته وبسمته القويم وخلقه العظيم. وتعبدهم بتلاوته وحفظه وفهمه والعمل به والدعوة اليه فأخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم. فأصبح الحفاة العراة رعاء الشاء من عبدة الاصنام وأسارى الخرافات والاوهام أمة مؤمنة عالمة تحمل مشعل الدين والحضارة الى أطراف المعمور، وتنهج سبيل الرحمة والعدل فى وجه الامم والشعوب، فسارت دعوة الاسلام سير الضياء فى الابعاد ونشأ فى مختلف أقطاره علماء كرسوا حياتهم لدراسة كتاب الله

من سائر جوانبه ودراسة علومه دراسة عمقة لم تتح لعلم من العلوم كانت محل اعجاب من أمم العالم. اتخذوه عدتهم فى الدعوة الى الله وغرس العقيدة الاسلامية الصحيحه ونشر الفضيلة وحماية الامة من المفاسد والشرور وتثبيتها على نهج الاستقامه فحافظوا على أصالتها رغم محاولة أعداء الاسلام طمس معالمها والقضاء على لغتها ومميزاتها فظلت متمسكة باسلاميتها الى أيامنا وستظل كذلك ان شاء الله حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ولقد أسهمت الجزائر بدورها فى هذا الجهاد العلمى فظهرت فيها تفاسير أما فى القديم فكتفسير الامام عبد الرحمن بن رستم وتفسير ابى يعقوب يوسف الوارجلانى (يقال أنهما فى بعض مكاتب أوربا الكبرى) وتفسير الشيخ هود بن محكم الهوارى الاوراسي، وتفسير الشيخ عبد الرحمن الثعالبى، وتفسير أحد علماء تلمسان القدامى على ما ذكره الشيخ البشير الابراهيمى فى بعض خطبه. وأما فى العهد القريب فكتفاسير الشيخ اطفيش : هميان الزاد أولا وتفسير التسيير ثانيا وتفسير داعى العمل ليوم الامل ثالثا، وكتفسير الشيخ بكلى الحاج عمر بن حمو أبرز تلاميذ القطب ورئيس مجلس عمى سعيد فى عهده تقريرا لا تحريرا. درسه بأكمله فى مسجد العطف (ميزاب) فى مدة ثلاث وعشرين سنة. وقد أشار اليه الشيخ سليمان الباروني فى ديوانه اذ يقول:

الى العطف حركنا الركاب وعرجنا
على مجلس الذكر الحكيم وحاجتنا
وكنا نرى علما تلاطم موجه
لدى الفجر فاستهوى النفوس فاهزجنا

وأما فى عهدنا الاخير فكتفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (وقد احتفل بختامه احتفالا رائعا) وتفسير الشيخ بيوض ابراهيم بن عمر المشغل غالبه الذى نحن بصدد

تقديم صورة مصغرة منه. ويجدر بنا لهذه المناسبة أن نعرف بالشيخ بيوض وان في كلمة موجزة. فمن هو الشيخ بيوض؟

ان صح أن المروءة هي مجموعة آداب نفسانية ومواهب انسانية فالشيخ بيوض اذن مروءة تمشي على رجلين: حباه الله بشتى المواهب: حباه بعقل سليم ملهم يسعده في كل موقف، وبعلم واسع لا تكدره الدلاء ولا يدرك غوره، صاف معينه صفاء الشريعة عذب فراته عذوبة الحق والصدق.

وبحافظة قوية هي عدته في استحضار الحقائق وسلاحه في مقارعة خصوم الحق.

وبذكاء وقاد دقيق الملاحظة لا تفوته اللمحة ولا تند عنه شاردة.

وحاسة فنية هي معيار في تقييم الاشياء ومقارنته بين الاشياء والنظائر

ولسان ذرب فصيح يستمد مدده من فيض الحكمة يقرنه المعنى البعيد بلفظ موجز ويستنزل الخصم العنيد من عليائه بأسلوب معجز.

وثبات على مبدا الحق يفسره استمراره في ميدان العلم والاصلاح أكثر من ستين سنة لم يتبدل ولم يتحول.

شجاعة أدبية تتجلى في التصريح بنظرياته والنضال دون آرائه رغم قساوة الظروف وبغي الاستعمار وخدام ركابه وتالب أسارى التقليد عليه طيلة حياته.

واخلاص تشرق أنواره على أعماله فتكسوها مسحة السداد وتطبعها بطابع الرشاد.

خصائص اجتمعت واتحدت ومواهب ائتلفت وتآلفت في شخص الاستاذ الجليل فجعلت منه وحيد أمته وعبقري ميزاب في عهده.

سخر هذه المواهب وما أتاه الله من بصر بالقرآن وصبر على دراسته في تحصيل العلوم ونشرها بأسلوب بديع رفيع لم يعهد قبله في وسطه. وقد أولى معظم مجهوده لكتاب الله فهما وافهاما وغوصاعلى درره وأسراره واستجلاء بدائعه وعرائسه، وقد تأثر بأسلوب الشيخ محمد عبده وطريقته في التفسير وعمق فهمه لاسراره ومقاصده فسار على وثيرته وفسره هو بدوره تفسيرا حكيما يلائم مقتضيات العصر وحاجات المجتمع المسلم فأصلح العقيدة وطهر الاخلاق ونشر الفضيلة وحمى الامة من الشرور والآفات وهدم صروح الظلم والفساد.

شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين فكان أحد أعضاء ادارتها الاولى وحامل لوائها في الجنوب الجزائري كما شارك في الحكومه الانتقالية التي تسلمت مقاليد أمور الجزائر من فرنسا وسلمتها للامة وله في هذين المجالين وغيرهما مواقف مشرفة يحفظها له التاريخ.

شرع في دروس التفسير وهو في مكتمل شبابه بفيض حيوية ويتدفق علما في غرة المحرم عام 1353 هـ الموافق لشهر ماي سنة 1935 م واستمر على القائها الى أن بلغ سورة الاسراء عند قوله تعالى: ـ ولقد كرمنا بني ءادم وحملناهم في البر والبحر ـ هنالك ابتدىء التسجيل وتواتر الى أن كمل تفسير القرآن يوم الاربعاء 26 ربيع الاول عام 1400 هـ الموافق ليـوم 18 فيفري 1980م

وعسى أن تنتهز فرصة لاستعراض نماذج ناطقة من صوت المفسر نفسه ويومئذ تتبين لنا قيمة الذخيرة التي استبقاها مفسرنا للاجيال بعده. هذا ولم يكن جهاد الشيخ بيوض العلمي مقصورا على التفسير بل هو أحد دروسه اليومية كان يلقيها على طلبته الذين تعاقبو اعليه أفواجا أفواجا طيلة مدة تدريسه من قبيل 1920 م الى 1980 م أي أكثر من ستين سنة وقد ازدهر معهده من أواسط الثلاثينات الى حدود الثورة الجزائرية

ثم لا يزال. درس أثناءها الكتب الآتية: فتح البارى على صحيح البخارى فى الحديث ـ شرح طلعة الشمس فى أصول الفقه ـ كتاب النيل فى فقه الاسلام ـ مغنى اللبيب فى النحو ـ دلائل الاعجاز فى البلاغة ـ أمالى القالى فى الادب ـ تهذيب التنقيح فى المنطق ـ عظة الناشئين فى الاخلاق الى غيرها. وله فى كل هذه الدروس جولات ومنها استنباطات وعليها استدراكات.

كان يلقيها عليهم بفصاحته المعهودة وتحليله المنطقى وأسلوبه الحكيم واخلاصه المشرق فأحدثت فى نفوسهم ثورة أدبية عارمة وحيوية فياضة ووطنية صادقة فكان فيهم المؤلف والمصلح الاجتماعى والمربى والواعظ والكاتب والشاعر، فارتفع المستوى الثقافى فى الامة وظهر أثره فى حياتها وتأتى لمعهد الحياة أن يسهم فى بناء الجزائر الحديثة بجيوش أبنائه الذين سدوا مختلف الثغور لا سيما فى مجال الثقافة.

وزيادة على ذلك فقد سد ثغرة الافتاء من فجر حياته العلمية: يفتى الناس بما يسعهم فى دينهم مراعيا فى افتائه يسر الاسلام وسماحته عملا بقوله (ص) ـ يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ـ فكان مثالا للمفتى الحاذق، العارف بأمراض المجتمع، البصير بزمانه، الواثق بصحة فهمه لاحكام الدين، يصرح بها فى جرأة لا يبالى انتقاد منتقد ما دام يستيقن أنه على حق وصواب. فكم من زوابع أثارها عليه أنصار التقليد فسكنت وأثبتت الايام صدق آرائه وسداد ما ذهب اليه. وبالجملة فقد كان عهد الشيخ بيوض فى ميزاب عهد يقظة وانبعاث فى مختلف الميادين العامة. فقد أثر بدروسه الرائعة وتوجيهاته الحكيمة فى المجتمع الميزابى بأسره بل امتد اشعاعه الى ما وراء ميزاب بما أشاع من ثقافة وأمدهم به من رجال العلم والعمل ونفخ فيهم روح الحياة والوطنية الحقة، وصرخ فيهم صرخته

الداوية الى العلم والعمل، فاستيقظ نائم وانتبه غافل وانبعث راكد فاقبلوا بصغارهم على معاهد العلم وبكبارهم وشبابهم على ميادين الاقتصاد، فاستطاعوا بفضل هاتين الدعامتين: دعامة العلم ودعامة المال أن يؤسسوا المدارس وينشئوا الجمعيات لاحتضانها ونظموا من جهة أخرى تجارتهم وتطوروا بها فى هذا العهد الاخير الى معامل انتاجية استطاعوا أن يسهموا بها فى نهضة الجزائر الاقتصادية.

هذا ورغم تقدمه فى السن وتحالف الامراض عليه فان شخصيته لا تزال تحدو قافلة الامة وصيته لا يزال ذائعا فى الاوساط العلمية الاسلامية داخل الجزائر وخارجها أطال الله بقاءه للدين والامة وأجزل مثوبته على جهاده المديد المرير انه نعم المولى ونعم النصير.

وبـعـد، فها نحن أولاء نقدم لامة القرءان تفسيرا لسورة النور نقله من شريط الدرس الشيخ بالحاج عيسى بن محمد ولخصه الشيخ الناصر بن محمد المرمورى. فهو وان قدم لنا صورة مصغرة من الاصل لكنها لو كانت بقلم المفسر نفسه لكانت ولا شك أبدع وأروع فلتعتبرها عجالة الراكب ريث يتيسر تدوين التفسير المسجل بأكمله انه ولى التوفيق والتيسير وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب.

بريان ـ غرة جمادى الاولى سنة 1400 هـ 18 مارس 1980

بكلى عبد الرحمن بن عمر

سُورَةُ النُّورِ

مدنية وآياتها 62

بسم الله الرحمن الرحيم سورة انزلناها وفرضناها وانزلنا فيها آيت بينت لعلكم تذكرون ـ السورة تسمى سورة النور ـ كما هو معروف ـ لان الله تبارك وتعالى قال فيها : الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ... الآية وسميت أيضا باسم النور لان فى مطاويها ما ينير قلب المسلم بالآداب التى تطهر النفوس وتزكيها وتنير القلوب و تجعل الانسان المستنير بها يمشى فى نور الله فطوبى لمن عمل بالآداب و الاخلاق المذكورة فى هذه السورة ! انها النور حقا.

بدأها الله تبارك وتعالى بمقدمة فريدة فى القرآن، فلا تجد سورة طويلة مثلها ولا قصيرة بدئت بما بدئت به هذه السورة : أنزل الله فى أولها ما هو كمقدمة للاحكام والاداب والاخلاق المفصلة فى سائرها وهذا النمط من التقديم تمتاز به هذه السورة من بين سائر سور القرآن ولهذا بدئت هكذا: **لبسم الله الرحمن الرحيم سورة انزلناها وفرضناها وانزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون.** وتوضيحها هكذا: هذه سورة من القرآن، أنزلناها كما أنزلنا غيرها من السور ، وشاء الله ان ينص على انزالها تنصيصا خاصا وبضمير العظمة نـا ـ وهذا يشعر بما لهذه السورة من مزيد العناية والاهتمام من منزلها العظيم واذا كان المنزل عظيم فالمنزل كذلك بالمنزلة العظمى. ثم قال : وفرضناها، الفرض كما هو معروف

يطلق ويستعمل فى الايجاب للامر الذى يجب تنفيذه ولا عذر فى التهاون به او تركه كما هو معروف فى سائر الفرائض والواجبات وقال الفقهاء : ان كلمة فرض أعظم من كلمة واجب ، فالحنفية يفسرون الفرض بالامر الواجب بنص قطعى من كتاب الله تعالى او بدليل يقينى من السنة أما ما ثبت بدليل ظنى فيطلقون عليه واجبا. وعند بعض الفقهاء يسوون بين الفرض والواجب فى المعنى ويطلقون أحدهما بدلا من الاخر ومهما يكن فالفرض فى الشريعة يطلق على الواجبات المفروضة القطعية لاعذر لأحد فى تضييعها فمعنى ما تقدم : سورة أنزلناها وفرضنا أحكامها التى تشتمل على حدود وأوامر ونواه فاستمسكوا باحكامها واعملوا بها ترشدوا. ثم قال وأنزلنا فيها آيات بينات : أنزلنا فى هذه السورة آيات بينا فيها ما يجب بيانه من الآداب والاحكام والحدود والمعالم مما لا شبهة فيه ولا اختلاف. وفى الآيات متشابه يحتمل معانى يختلف العلماء فى تأويلها وتبيينها على المذاهب. وفيها محكمات مبينات قطعية فى موضوعها ومدلولها لا تحتمل التاويل ولا الشك ولا الاختلاف وتلك هى الآيات البينات لان البين هو الواضح الذى لا شبهة فيه ولا جدال ولا ينبغى فيه الاختلاف ثم قال : لعلكم تذكرون. كل ذلك لعلكم تتبصرون وتتبينون طريق الآخرة الواضح تتبعونه ـ وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ـ ومن رأى بعين بصيرته استبصر وتذكر ولم تذهب به الغفلات والشبه بعيدا عن الصواب والمرء قد يؤتى من جهله وقد يؤتى من غفلته وقد يؤتى من نسيانه وأى عاقل لا يهفو ولا ينسى فهذه الآيات البينات توقظكم من غفلتكم وتذكركم اذا نسيتم وتعلمكم أحكام الله فتدركون الحكمة من تشريعه فتتبعون هذا الصراط المستقيم ثم بعد البيان ليحيا من حيى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، يقيم الله الحجة على عباده ويقطع الاعذار ومن أنذر فقد أعذر. فالاشارة الى موضوع

السورة بما تقدم يدل على اهميتها العظيمة ومقامها فى الاسلام فهى تربينا على مكارم الاخلاق ، التربية الحسنة : العفة والطهارة وكرامة النفس والنبل والشرف فمن كان على هذه الاخلاق العظيمة فهو بالمنزلة العظمى عند ربه . وسنرى فى مطاوى هذه السورة ما فيها من أسس التربية الاسلامية الصحيحة واصل الاخلاق الكريمة والسلوك الطيب الذى به تزكو نفس المسلم رجلا كان او امرأة. فى هذه السورة مزيدا الاعتناء بتربية الاسرة المسلمة التى هى الخلية الاولى لهذه الامة الكبيرة والامة كما تعلمون مجموعة أسر، وعائلات وكل عائلة تتركب من رجل وامرأة وما ولدا فهى اللبنة الاولى فى بنيان هذا الصرح العظيم. فاذا بنيت الاسرة على الطهارة والعفة من رجل وامرأة عفيفين اتصلا بنكاح صحيح لم يمزج بشيىء من سفاح او ريبة نشأ الاولاد على العفة والطهارة والنقاء واذا طهرت البيوت فبالتالى يطهر المجتمع ويكون نظيفا مهما كانت خلاياه نظيفة فينبغى الاعتناء الكامل بهذه الخلايا التى هى أصول الامة الاسلامية ولا يصلح بالافراد و الاسر الا ما شرعه خالق الافراد والاسر مما فصله لنا فى هذه السورة من الاسس والقواعد والطرق التى ان سلكناها حافظنا على أصول المجتمع النقى السعيد من المعلوم ان الفساد قد عم دنيانا فى زماننا هذا بنسبة تسعين ان لم نقل تسعة وتسعين بالمئة وكل هذا سبب انحراف العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء وانتشار الفواحش والموبقات الذى هو سبب الخراب والدمار. وما يقع فى ديار الخنا والقمار والسهرات الحمراء وحانات الخمور من القتل والضرب والسرقات أكبر دليل على ما نقول ولن يكن صلاح العالم الا بالرجوع الى التربية القرآنية القويمة. ففى هذهالسورة سورة النور أنواعالاحكام والآداب والردع من الوقوع فى الفواحش والموبقات والمنع من الوقوع قبل التردى والحكماء يقولون : الوقاية خير من العلاج ، فلنا كثير من

الاوامر والنواهي في هذه السورة اذا تتبعناها نحمي ايماننا من الكدر ومجتمعاتنا من الامراض الفتاكة التي تخرب المدائن والقرى ولنا كثير من انواع العلاج في حالات الاصابات بشيء من هذه القاذورات التي تلوث المجتمعات اذا ظهرت فيها ولم تعالج بما يزيلها قبل الاستشراء والتمكن أعطانا الله تبارك وتعالى أسباب الوقاية وفي حال الاصابة أرشدنا الى أسباب العلاج بما وضع من الحدود التي امر باقامتها في غير ما رافة ولا هوادة بدأ بحد عقوبة الزنا لخطره الكبير على نفس الفرد وعلى بنيان المجتمع فصدع بحده هكذا بدون مقدمة ليكون أشد وقعا في النفوس ثم أمر بابعاد الزناة عن المجتمع المسلم حتى لا يتلوث فقال : الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المومنين. ثم شدد في ظروف اقامة الحد فامر بشهود جماعة المومنين للعظة والاعتبار وخزى المحدود فقال : وليشهد عذابهما طائفة من المومنين. ثم ثنى بعد ذلك بحد القذف والتشديد فيه حتى لا تنتشر الفاحشة في المجتمع النظيف وحتى تصان اعراض المسلمات والمسلمين ولا شيء يشيع الفساد وينشر الفواحش كشيوع التهم وانتشار الكلام في الناس فهو الذي يهيج الشهوات في نفوس مرضى القلوب الذين يتشممون الجيف ويتحسسون الريب ومواطنها . فالقذف لا يقل خطرا عن الزنا ولذلك أمر باقامة الحدود على كل من يقذف برئية أو برئيا كما تقام على الزناة أنفسهم ثم أمر المسلمين المومنين ان يحسنوا الظن بانفسهم واذا ظن الجار خيرا بجارته لا يخطر بباله ان يتعرض لها ولو بالاشارة والغمز انما يكون ذلك اذا ظن سوءا فيطمع ان توافقه على قصده الخبيث أو يوافقها هي على ما تطمع منه كل ذلك يكون عند شيوع الفساد فالاوساط التي يتعرض فيها الشبان للفتيات على أبواب المدارس او يطرقون عليهن أبوابهن أو يتعرضون لهن في الطرقات اوساط موبوءة شاعت فيهن قالة

السوء وظن السوء ، لذلك يامر الله تبارك وتعالى المومنين والمومنات ان يظن بعضهم ببعض خيرا وينفوا عن قلوبهم الوساوس والهواجس السيئة ـ لولا اذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيرا ـ كما سيأتى الكلام فى قصة الافك، يأمرنا الله تبارك وتعالى أن نشيع بيننا حسن الظن وليس رد التهم هو الرضى بوقوع الفاحشة كما ان السوء الظن وشيوع التهم ليس هو قمعا للفواحش بل هو اشاعة لها فان كثيرا ممن يشيعون التهم هم المتهمون بحب الفواحش لاتحملهم الغيرة على ذلك كما يتوهم البسطاء من الناس بل يشيعون التهم لمرض فى قلوبهم **فهى تهوى الكلام** فى الفواحش كما يعترف الكثير منهم بتصريحات فيها خبث وريبة فالذى يحملهم على الولوغ فى أعراض المحصنات هو الحقد عليهن لتمسكهن بأهداب الفضيلة والستر والحياء ولاغراض أخرى دنيئة فى نفوسهم الخبيثة فنهى الله المومنين والمومنات عن الاستماع اليهم والانخداع بترهاتهم وأمر برد أقوالهم وحكم عليهم بالفسق والكذب وأمر بجلدهم حد القذف كما سيأتى ونهانا عن قبول شهادتهم وأخبر أنه أعد لهم عذابا أليما فى الدنيا والآخرة كل ذلك ليطهر المجتمعات المسلمة لتحصن الفروج وتغض الابصار وتزكى ـ قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ... الآية ـ وهذا كله سيأتى تفسيره ان شاء الله ويامر الله النساء بالحجاب أمرا صريحا (وليضربن بخمرهن على جيوبهن(والخمار معروف تسدله على وجهها وصدرها وعلى جسدها كله وفصل فى هذه السورة أصناف المحارم الذين يجوز للمرأة ان تبدى لهم زينتها . ثم أمر بالاستئذان فى البيوت لان البيوت لها كرامة وحرمة فلا يجوز دخولها ولو كانت أبوابها مفتحة ولا النظر الى أجوافها من أى منفذ ولا الاقتراب الا بالاستئذان والسلام كل هذه الاحكام سياتى ذكرها فى

محلها ثم بين مواضع الاستئذان حتى أمر الاطفال الذين دون البلوغ بالاستئذان فى بيوتهم على آبائهم وأمهاتهم فى مخادعهم وكذلك العبيد والاماء على مواليهم واذا بلغ الاطفال الحلم فليستاذنوا فى كل وقت وفى كل موضع حتى على آبائهم وأمهاتهم لان العورات تستر عن القريب والبعيد والكبير والصغير. وهكذا يسترسل فى هذه الآداب العالية ويتخللها بالتذكير والوعظ والتخويف، كما هو أسلوب القرآن البديع. ثم يذكر أحكام القواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحا لكبرهن وعجزهن فيخصهن بأحكام فيها بعض التخفيف شرط ان لا يتبرجن بزينة غير انه قال : بعد هذا الترخيص وان يستعففن خير لهن . فالستر خير لهن : ويذكر الله فى مطاوى هذه السورة قصة الافك وما اتهمت به عائشة أم المومنين من طرف الذين يطلقون ألسنتهم قصد احداث الفساد فى المجتمع الاسلامى النظيف. لان روح المجتمع وقوامه هو الفضيلة والنقاء والطهارة ولا يضره بعد ذلك ان يكون قليل العدد اذا كان افراده يسود بينهم الصفاء والعفاف وحسن الظن وكرامة النفوس ذلك هو المجتمع الصالح الذى يبلغ ماربه من خير الدنيا والآخرة ويبارك الله لهم وعليهم غير ان المنافقين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان يتربصون الفرص ويحاولون افساد المجتمعات الصالحة بما يلقون بين الحين والاخر من اشاعات سيئة يحاولون بها بلبلة افكار الناس فيتاثر بها ضعاف النفوس والقلوب فيحذرنا الله تعالى من الاستماع اليهم التحذير الشديد كما سياتى تفصيله فى مواضعه . يريد الله ان يطهر مجتمعات المسلمين والمسلمات من اشاعة الفاحشة حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض ويباعد الله بين الطيبين من عباده والخبيثين فيقول تعالى : الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون ممايقولون ... الآية . كل ينجذب الى جنسه فالطيب لا يرغب الا فى الطيب والخبيث لا يرغب الا

فى الخبيث حتى يرضى الفاحشة فى أهله فيكون ديوثا وليس فى الجنة ديوث. هنالك ناس يسترزقون من اعراض بناتهم ولا يستحيون من ذلك يختالون فى زينتهم غادين رائحين الى دور البغاءيحصلون منها ارزاقا من بناتهم البغايا ولا يبالون يتعجب الواحد منا من هذا الحضيض الذى تردى فيه هؤلاء والعياذ بالله ولكن ينتفى العجب اذا عرف السبب وهو أن هؤلاء الدياييث لم ينتهوا الى ذلك المصير طفرة لكنهم تردوا اليه تدريجيا وفصموا عرى الاخلاق عروة عروة حتى أصبح المنكر عندهم معروفا والعكس فيؤدبنا الله ويطهر انفسنا وينقيها من الدنس الذى قد يتمكن فيها على مر الايام فتألف ما تنفر منه اليوم وذلك هو المسخ الحقيقى : مسخ النفوس وعمى البصائر، هؤلاء مسخوا قردة وخنازير، وكثير من العلماء فسر المسخ الوارد فى القرآن انما هو مسخ الطباع حتى صاروا فى التسافد والفساد كالقردة والخنازير، يقضون شهواتهم أمام الناس ولا يبالون وأى مسخ أقبح من هذا وفى الناس اليوم كثير من هذه الاصناف تردوا فى مهاوى الشهوات الجنسية فصاروا قردة وخنازير ولو شئنا لسمينا أناسا يشجعون أولادهم على الفسق ويضعون تحت تصرفهم أموالا ويامرونهم بذلك ، هؤلاء ليسوا بمسلمين ولا تكون عاقبتهم الا وخيمة ومنهم من أرانا الله سوء عاقبته فمات غما وحزنا بسبب فساد اولاده ومنهم من لا يزال على قيد الحياة وسينفذ حكم الله فيهم ان لم يتوبوا ويرجعوا الى الصراط المستقيم : وهذا تمثيل جرته مناسبة الكلام فى تقدمه تفسير هذه السورة العظيمة التى جمع فيها من الاداب والاحكام والحدود ما لم يجمع فى غيرها من السور وقد قدم الله تبارك وتعالى بهذه المقدمة الممتازة تنويها بشانها وتنبيها لنا لنقرأها ونحفظها ونطبق ما فيها من أحكام وآداب على الافراد والمجتمعات، ورد فى الحديث عنه)ص(أنه قال : حفظوا نساءكم سورة النور. وورد فى حديث آخر علموا رجالكم سورة المائدة ونساءكم سورة النور. أما المائدة

فلأنها أواخر ما نزل من القرآن: فيها احكام كثيرة : فيها ستة عشر نداء بيايها الذين ءامنوا ، وفيها وفى سورتى النساء والاحزاب أحكام النساء وأما النور فلما علمتم وستعلمون من توجيهاتهـا الرشيـدة فى تربيـة العائلات والافراد. وورد ان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكتب لعمالـه يامرهـم ان يامروا الناس أن من لم يستطـع حفظ القرآن كلـه فليحفظ سورة النساء والنور والاحزاب ، وما هذا الا لأن سيدنا عمر يعلم ان فساد الدنيا من فساد العلاقات بين جنسى النساء والرجال. فلو استقامت وكانت كلها بطريق النكاح الصحيح والعفاف والتقوى لنقص أكثر ما فى الدنيا من شرور وآفات ومحن. وكان سيدنا عمر يأمر بتحفيظ النساء سورة النور وتعليمهن الغزل ولزوم البيوت فان ذلك أطهر لهن وللمجتمعات واسلم من الشرور والانحرافات. هكذا نرى حكم الله تعالى البالغة فى تقدمة هذه السورة ثم يشرع لنا حد الزنا فيامر المسلمين باقامة الحد على الزناة بهذه الصيغة القاسية الجادة فيقول : **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ... الآية.** اختار الله تبارك وتعالى هذا الاسلوب من التعبير المصرح فيه بلفظ الزنا كما كرر هذا اللفظ فى سورة النور. ومعلوم أن لفظ الزنا يدل على الفاحشة الكبرى الفظيعة حتى أصبح اللفظ نفسه وكأنه يستحيى من ذكره فقليلا ما يصرح به الا اذا اقتضاه المقام والله تبارك وتعالى يكنى ولايصرح غالبا فى الامور التى تتعلق بالجنس، يعبر لها بتعابير لطيفة فيقول مثلا فى الجماع باشروهن، وقد أفضى بعضكم الى بعض، أو لامستم النساء، ما لم تمسوهن يتخير العبارات اللطيفة الخفيفة ليس فيها تصريح بما يستحى الكريم من ذكره، ولانجد التصريح بلفظ الزنا الا قليلا فى القـرآن فيقول مثلا فى باب النـهى عنه: ولاتقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا، والذين لايزنون ويقرن الزنا بالشرك فيقول: والذين لايدعون مع الله الها ءاخر ولايقتلون

النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون، بينما يكنى فى آيات أخرى بحفظ الفرج، والذين هم لفروجهم حافظون. فتكرار هذه الكلمة ست مرات فى هذه السورة يدل على نوع من التقبيح الشديد والوصف الشنيع اللاحق بمرتكبى هذه الفاحشة. والابتداء بذكر لفظه الشنيع مقصود فلوشاء لقال: يايها الذين ءامنوا أجلدوا الزانية والزانى مائة جلدة وانما اقتضت حكمته ان يفاجىء السامعين بهاتين اللفظتين الشنيعتين مبالغة فى التقبيح والتنفير ثم يتركهم ينتظرون الخبر عن هذا الجرم الفظيع ما الحكم فيه فيجيء الحكم له وقع فى النفوس ويرتبط بالفاء ايذانا بالعلية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولكى ينصص على الحكم مفصلا ويحققه جيدا ذكر صفة المرأة وصفة الرجل ولو شاء بصفة المذكر التى يطلق على كل من صدر منه الزنا رجلا كان او امرأة ولكنه صرح بذكرهما معا حتى لا يبقى مطمع فى نجاة أحدهما من العذاب فهم فى العقوبة سواء كلاهما مجرم سواء أكان الاغراء من المرأة ثم استجاب الرجل أو كانت المطالبة من الرجل ثم طاوعت المرأة ما دام كلاهما مستجيب لداعى الشهوة البهيمة بطريق غير مشروع فيه هدم لبنيان المجتمع النزيه تدنيس لشرف البيوت والاسر ـ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ـ الجلد هو الضرب بالسياط وهذا عقاب أليم فيه وجع شديد... واذلال واهانة للمجلود لان الضرب انما يقع على البهائم لا لبنى ءادم ، ولما كان الزانى دنس نفسه وأنزلها فى متابعة الشهوات منزلة البهائم صار مستحقا لعقوبة البهائم جزاء وفاقا ولم يعد انسانا يتحكم عقله فى شهوته. والعقل موهبة اختص الله بها الانسان فمن كفرها استحق العقوبة الصارمة بينما البهيمة الراتعة الغافلة غير مسؤولية ولا محاسبة لانها ليست عاقلة فالانسان المتبع هواه شر منهما وأضل.. من أجل ذلك قال الله فى مثل هؤلاء ـ ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا ـ أشبهوا البهائم فى الطباع ولكن دركتهم أسفل لأنهم اتبعوا

شهواتهم وعصوا عقولهم وقيل فى الحكم: من غلب عقله على هواه فقد نجا ومن غلب هواه على عقله فقد ضل وغوى فرض الله هذه العقوبة الصارمة عقوبة الجلد على الزناة ـ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ـ حكم مقرر مضبوط : مائة جلدة لا ينقص منها واحدة كما أنه لا يجوز ان يزاد عليها واحدة، وحكم الله ليس فيه زيادة ولا نقص، وثبت فى الحديث عنه (ص) قال : يؤتى يوم القيامة بأحد أقام الحد ونقص سوطا فيقول الله له: لم نقصت سوطا فيقول: يا رب رأفة بعبادك فيجيبه الله تعالى أأنت أرأف بعبادى منى اذهبوا به الى النار، ويؤتى بآخر زاد فيقول له : لم زدت فيقول يا رب ليرتدع عبادك فيقول الله له: أأنت أحكم منى اذهبوا به الى النار. ولذلك يطلق على هذه العقوبات حدود لانها محدودة يجب الوقوف عند شرع الله الحكيم. ثم قال الله تعالى: ـ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ـ الحكم الثانى: لا تاخذنا بالمحدود رأفة والرأفة هى الشفقة والرقة والحنان الذى يكون فى القلب الذى ربما يحمله على تخفيف العقوبة او تخفيض عدد الجلد فاراد الله تعالى ان ينفذ عليه العذاب كاملا ليرتدع غيره ولذلك قال: ـ وليشهد عذابهما طائفة من المومنين ـ وسماه عذابا فلابد بتشديد الضرب واحداث الوجع ليكون عذابا. وهذا كما قالت عائشة رضى الله عنها تصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان عمر اذا مشى أسرع، واذا تكلم أسمع، واذاضرب أوجع. وقال تعالى : ـ رأفة فى دين الله، فبين بهذه العبارة ان اقامة الحدود دين ندين الله به ونقيم شعائره كما تقام الصلاة والصوم والزكاة وكما تقام شعائر الحج. ان هؤلاء الفساق عبيد آبقون عن ربهم هتكوا حرمة الدين وفسادهم كبير فهم لايستحقون الرأفة ولا التخفيف كما أنهم لم يرأفوا بالمجتمع حين ارتكبوا هذه الفاحشة التى تصدع أركانه وتهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم زاد فقال: **ـان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ـ هذه من الايات

التى يستدل بها على ان سياسة الدولة ونظام الحكم وتقنين القوانين يجب أن تكون مستمدة من كتاب الله، لافرق فى الاسلام بين الدين والدولة، فالتفريق بينهما من خرافات النصارى الذين يقولون : الدين لله والوطن للجميع. يقصدون بهذا التفريق بين الدين والدولة، والله تعالى شرع لنا الاسلام دينا كاملا ينظم للفرد واجباته وأعماله وللدولة سياستها وأعمالها ونظام الحكم والطرق التى تساس بها الامة، كل ذلك شرع متماسك آخذ بعضه ببعض ان كنتم مومنين الايمان الحقيقى لا تأخذكم بهما رأفة فتريدون من العقوبات غير ما أراد الله وشرع فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون. وهذه الحدود مكلف بها أئمة المسلمين وحكامهم فهم المخاطبون بهذه الآيات لا العوام والرعايا وفيها ما فيها من التعزير والزجر والآداب وهذا باب واسع من الفقه له مواضعه لمن أراد التوسع فى العلم.

ثم قال تعالى: ـ **وليشهد عذابهما طائفة من المومنين** ـ الشهود هو الحضور أمر الله أن يقام الحد على الزانى علنا لا سرا فليجهر به فى ملا من الناس ليحضروا ويشاهدوا ويعتبروا فيرتدعوا ثم ليكون ذلك أخزى للمحدود وأظهر لفسقه حتى يجتنبه الناس ويبقى المنكر منكرا و المعروف معروفا. وقد يرتدع الانسان بالخوف أولا ثم بعد ذلك يستقيم ويذوق حلاوة الايمان ويصير العفاف طبعا فيه يجتنب المعاصى بغضا لها وخوفا من عقاب الله فى الآخرة لا من الحد فى الدنيا فالاشهار فى اقامة الحدود لفائدة الفرد والمجتمع حتى يبقى هذا المجتمع نظيفا وبعيدا عن حمأة الفواحش والمنكرات. فهنا فى هذه الآية اربعة احكام : فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، هذا حكم. والحكم الثانى ـ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ـ والحكم الثالث ـ وليشهد عذابهما طائفة من المومنين ـ والحكم الرابع : ان هذه الطائفة من الفساق لا منزلة لها فى المجتمع المسلم ولا يصح نسبتها الى عباد الله المومنين بل هؤلاء فاسقون خارجون من حظيرة المجتمع النظيف

لا محل لهم فيه فأما ان يموتوا باقامة الحد عليهم ان فعلو ذلك بعد الاحصان وان فعلوه قبل الاحصان لا يعودون الى حظيرة المسلمين الا بعد ان يتطهروا بالتوبة والانابة ويطهروا باقامة الحد عليهم ان أعلنوا فاحشتهم أو قام عليهم الشهود. فرق الله بين الزناة وبين المومنين ونهى المسلمين عن الاقتراب منهم فقال : ـ **الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المومنين** ـ والحق أنه لا يرغب في نكاح المرأة المشهورة بالفساد الا من هو فاسد مثلها ولا ترغب في نكاح الرجل الفاسد الا فاسدة مثله. وجعل الزاني في درجة المشرك وهذا ايذان من الله بالمقت لعمل هؤلاء والمؤسف أن كثيرا من شبان المسلمين الذين طمست الشهوات بصائرهم يرغبون في الاقتران بالفواسق فلا يقر لهم قرار الا اذا ذهبوا الى بلاد الشرك فيرجعون منها متأبطين ليهوديات أو نصرانيات أو مشركات ويرغبون عن العفيفات من بنات اوطانهم وهذا خطر كبير على المجتمع المسلم يجب درؤه ووضع حد لهذا العمل الخاطىء وكثيرون منهم يختارون قريناتهم في الملاهي والمسارح وفي الطرقات والشطوط يتبرجن ويبدين زينتهن ومفاتن اجسادهن ويتعرين ليصطدن قلوب المفتونين بالمظاهر الغافلين عن الفضائل والاخلاق الاسلامية لخلو قلوبهم منها والحال ان المثل الحكيم يقول : أختر لك زوجة بسمعك لا ببصرك، والحديث الشريف يقول : ـ فاظفر بذات الدين تربت يداك ـ وذات الدين هي العفيفة المحصنة المتسترة التي تغض بصرها وتحصن فرجها ولا تقرب الزنى فهي من المحصنات الغافلات المومنات اللاتي لا يحوم حولها الريب وقد تكلم العلماء في معنى هذه الآية في حكم التزوج بامرأة كانت مبتلاة بالزنا ثم تابت واستقامت على توبتها، فهناك من يقول لا رغبة فيها ولا خير في الاقتراب منها ولا يجيز الاقتران بها فليس من شأن المسلم العفيف ان يرضى بها زوجة ولا أما لأولاده. ومنهم من يجيز

نكاحها اذا تابت توبة نصوحا وظهر على مر الايام صدق توبتها واستقامتها وعلى هذا القول جمهور الامة واستدلوا عليه بقوله تبارك وتعالى : ـ وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم واماثكم ـ وببعض الاحاديث وبعض وقائع فى زمان النبىء (ص) والخلفاء الراشدين، امرأة ابتليت ثم تابت واستقامت وساق الله لها من يسترها ويحصنها وهنا أظهر لها وأزكى للمجتمع المسلم لأن بقاءها بدون زوج ربما يغريها أو يغرى بعض فساق القلوب بمحاولة اغوائها فخير لها ان تتزوج .أما ما يفعله بعض الفسقة يتصلون ببغى فى دار الفساد ثم يختص بها وينهب بعد ذلك يعقد عليها فحرام عليه ذلك، وقد ورد فى الحديث الصحيح: أيما رجل زنا بامرأة ثم تزوجها فهما زانيان الى يوم القيامة ، لا يجوز بحال والحال هذه ان يفكر المؤمن فى الاتصال بهذه الجيفة المنتنة وقد يؤول الامر أن يصير ديوثا والعياذ بالله. لكن اذا تابت بغى وظهر صدق توبتها وابتعدت عن مواطن الريبة فحينئذ رخص العلماء لمن لم يتصل بها بتاتا ان يتزوج بها ويحصنها ففى ذلك اعانة لها على أمر صلاحها. ثم الى جانب حكم الجلد المنصوص عليه فى هذه الآية نجد حكم الرجم لمن سبق لهم الاحصان أى الزواج، نجد حكم الرجم ثابتا بالسنة وباجماع العلماء والأمة كلها ولا خلاف فى ثبوته بين المذاهب والرجم هو أن يضرب الزانى رميا بالحجارة حتى يموت، الرجل يحفر له الى السرة والمرأة الى الصدر وبعض العلماء قالوا : لا لزوم لهذا الحفر، ثم يرمى بحجارة متوسطة مقدار قبضة اليد هذا حكم كل زان او زانية سبق لأحدهما الزواج ولو كان حال ارتكاب الفاحشة عزبا. وهناك حكم يضاف الى المحدودين بالجلد وهو التغريب فقد روى من طرق مختلفة وصحيحة، أن عليه الجلد مائة وتغريب عام ، وعند بعض المذاهب الاكتفاء بالجلد وعندنا معشر الاباضية يرجع أمر التغريب الى نظر الامام اذا كان فى التغريب مصلحة للمجتمع وزيادة زجر

للمحدود غرب وهذا للرجال خاصة، وهذا حسب المصلحة لان بعض الفجار قد لا يرتدعون بمجرد الجلد حتى يبعدوا عن موطن جريمتهم وجوها فيكون ذلك عونا لهم على السلو عنها واشتغالهم بما يفيدهم ويصلح حالهم وهذه نظرية سديدة يمكننا الجمع بين ما جاء فى القرآن وما ورد فى السنة لان أحوال الناس تتفاوت فليكن أمر النفى حسب ملاحظة الامام لاحوالهم

وأما كيفية الضرب وحجم العصا ونوعها ففى ذلك فقه أيضا فلا تكون غليظة كالهراوى ولاتكون لينة رخوة انما تكون متوسطة فى الطول والقصر وبين الغلظ واللين وعند الجلد يتجنب الوجه والفرج والبطن ووضعية الجانى عند الجلد يكتف أو يبطح أو لايبطح كل ذلك مبسوط فى كتب الفقه من أراد معرفته فليقصد مظانه. المهم اننا رأينا شدة مقت الله تعالى لهذه الفاحشة بما شرع لاصحابها من عقوبات الرجم والجلد والتشهير وعدم الرأفة بهم وفى هذا ما يكفى للاعتبار والردع وهذه العقوبة مشروعة أيضا فى شرائع من قبلنا كما لتوراة ففيها الرجم وذلك لان طغيان شهوات النفس شىء لا يخلو منه زمان ومكان وفساد الزنى أمر معلوم فى الافراد والمجتمعات فلا معنى لقول الطاغين من ملاحدة المستشرقين وغيرهم فى عقوبة الرجم: يقولون هى عقوبة وحشية اذ الضرب للبهائم والرجم للكلاب وينسون الاضرار والمصائب التى يحدثونها بالمجتمعات والنسل بما يفوق العقوبة التى يرونها وحشية وسنتعرض لمطاعنهم ان شاء الله عندما نفصل أحكام العقوبات والفرق بينها ونشرح أضرار الزنا مفصلة ولنا فى تشريع الله ثقة عظيمة وتسليم كامل: ـ فالله يعلم وأنتم لا تعلمون ـ الله تعالى أعلم بما يصلح أمر عباده وأرحم بهم من أنفسهم وهذا لايشك فيه من فى قلبه ذرة من ايمان.

ـ الزانى لاينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المومنين ـ لا يزال الكلام طويلا فى تفسير هذه الآيات

وفى قوله تعالى: ـ وحرم ذلك على المومنين ـ وقد تقدم الكلام فى تحريم الزواج من امرأة معروفة بالزنا كماا ن المرأة العفيفة المسلمة يحرم عليها الزواج من رجل معروف بالزنا ـ وحرم ذلك ـ الاشارة الى النكاح المذكور هنا، أما قبل التوبة فالتحريم أجمعت عليه الامة كما هو منصوص عليه هنا، وأفتى كثير من العلماء بأن على امام المسلمين ان يفسخ هذا النكاح وللولى اذا تزوجت وليته بفاسق مشهور بالزنا أن يرد النكاح ولا يمضيه، هذا الحكم قبل التوبة ، أما بعد توبتهما من الزنا فلا بأس بانكاحهما عند جمهور العلماء اذا صدقت توبتهما واستقاما اما انكاحهما من بعضهما البعض فلا يجوز لا قبل التوبة ولا بعدها عملا بالحديث الصحيح المتقدم: ـ أيما رجل زنا بامرأة ـ وهو القول الذى اعتمدناه معشر الاباضية وبنينا حكمنا على الحديث، اتفق علماء الاباضية كلهم وكثير من علماء المذاهب الاخرى على ان نكاح مزنية الرجل حرام عليه ولو اتصل بها مرة واحدة اتصالا محرما بتأبد تحريمها عليه وجاء لفظ كتاب النيل هكذا : حرم على الرجل نكاح مزنيته وان بكره أو بعد توبته، اعتمد صاحب النيل الشيخ عبد العزيز الثميني على صاحب كتاب الايضاح الشيخ عامر الشماخى وعلى كتاب النكاح للشيخ عمى يحى بن صالح النفوسى رحمهم الله وهذا يبين ما عليه أهل المذهب ، والكلام فى الجبر والكره مفصل فى كتب الفقه المبسوطة وقال فى النيل : وبعد توبة، أى تحرم عليه ولو تابا وندما وروى شارح النيل الشيخ اطفيش رحمه الله عن الامام جابر بن زيد رضى الله عنه قال: من زنى بامرأة فلا يتزوجها وليجعل بينهما البحر الاخضر وان قدر ان لا ينظر اليها أبدا فليفعل ، ثم روى القطب أيضا فى شرح النيل قال: سئل أحد الصحابة عن رجل زنى بامرأة وبعد ذلك تزوجها فأجاب قائلا: تزوجها شر من زناها ، فاعتبر الزواج بهذ امتدادا لخط الزنا بينهما وكان هذا أشر من الزنا لانه حال الزنا اعتقد أنه عاص وفى الزواج بها اعتقد أنه

فى مباح حلال وهذا أخطر من الاول وأبعد عن التوبة فكان شرا منه . فالواجب ابعادهما عن بعضهما البعض. ثم روى الشيخ القطب رحمه الله فى النيل قال : سئلت عائشة رضى الله عنها قالت : فكرهته أى حرمته والكراهية فى عرفهم يومئذ التحريم ، كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها وروى حديثا آخر عن النبىء صلى الله عليه وسلم قال: لا نكاح بعد سفاح، ثم روى عن عائشة رضى الله عنها انها سئلت عن قوله تعالى: ــ وحرم ذلك على المومنين ــ فأجابت قائلة: حرام على أحد زنى بامرأة ان يتزوج بها بعد، قال الشيخ رحمه الله وفى ذلك رد على كلام من قال من مخالفينا بتحليل نكاح الزانى بمزنية ولو بعد التوبة قال الشيخ معلقا على كلام عائشة أم المؤمنين انها لم تفت بهذه الفتوى الا اعتمادا منها رضى الله عنها على أدلة صحيحة لان الاحكام التى لا يفتى فيها بالرأى لا يصرح بها مثل عائشة فى ورعها الا معتمدا على نص، فلكلامها رحمها الله حكم الرفع ولو لم تصرح بالرفع لأن الصحابة رضى الله عنهم خاصة الفقهاء منهم أمثال عائشة وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن مسعود والخلفاء الراشدين ومعاذوا وأبى وزيد بن ثابت هؤلاء فقهاء الصحابة لفتاويهم اعتبار لا يكون لغيرهم فهم أهل الحديث وأهل الفتوى وأهل التحقيق كما قيل:

الدين قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس خلف فيه
ما لدين نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأى فقيه

أما ما رووه عن ابن عباس أنه أفتى فى المسألة بالجواز قال: ــ أوله سفاح وآخره نكاح ــ فلذلك تاويل عند اصحابنا فقد حملوا كلام ابن عباس على ما اذا وقع الامر فى الشرك ثم دخلوا فى الاسلام فلا صلة مطلقا بين العهدين والاسلام جب لما قبله. قال الله تعالى : قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وعلى هذا التاويل يحمل أيضا ما رووه من حديث ، من قال لا اله الا الله دخل الجنة وان زنى وان سرق، أى فى الشرك ثم دخل

فى الاسلام معلنا بكلمة التوحيد فانه يغفر له ما عمل من عهد الشرك كائنا ما كان أما فى الاسلام لا بد بالتوبة النصوح كما هو مقرر فى القرآن والسنة فى آيات كثيرة وأحاديث فلا نخطىء فى التأويل ونتجرأ على الله ثم نتمسك بالامانى فهى لا تغنى شيئا أعفى الله الداخلين فى الاسلام من تبعات الشرك واعماله فى الدنيا والآخرة تيسيرا لهم ليجلبهم الى الاسلام ومراعاة لموقفهم الحميد فان التحول من دين وتقاليد موروثة الى دين جديد ليس بالامر الهين على النفس لان الخارج من دين آبائه وأجداده وقومه قد حكم ضمنا بخطئهم وضلالهم وهذا امر عظيم ولا يقوى عليه الا أولوا الصدق والعزم. أما تناكحهما بعد زناهما فى الاسلام فحرام كما افتى بذلك كثير من علماء الامة واجمع عليه علماء الاباضية، وفى المذهب يقول : الشيخ عبد العزيز فى النيل : حرمت بالغة وما ولدها وما والدت على ناظر فرجها وان خطأ على الاشهر، وشدد فى فرج صبية بعمد وكذا حكم ناظرة عورة رجل، هذه عبارة النيل وهو المعتمد عند الاباضية. وهذا باب واسع من الفقه وفيه أحكام كثيرة وكذلك حكموا فى المس كالنظر اذا مس رجل فرج امرأة تحرم عليه الا اذا كان لتنجية او علاج وبدون شهوة فلا بأس حنيئذ ولا تحرم وكذلك الشأن فى امرأة مست عورة رجل بالغ. اذا كان هذا الحكم فى النظر والمس فكيف بالمباشرة هذا عند الاباضية ومن قال بقولهم من علماء المذاهب الاخرى ولهم ادلتهم فى ذلك اما جمهور علماء المذاهب الاربعة فيجيزونه بعد التوبة النصوح والتكفير والاستغفار. ولنبحث الآن فيما يقع فى هذا العصر حتى ندرك كيف يترجح المصير الى قول الاباضية فى هذه المسألة وهى الحكم بتحريم مزنية الرجل عليه مطلقا طال الزمان أو قصر. لنفهم النكتة جيدا كى ندرك ان الزمان له دخل كبير فى تبيين الحق فى اختلاف الاقوال والمذاهب. فتطورات الامور وما يحدث من أنواع الفجور يكون سببا فى احداث أقضية أو ترجيح أقوال

كانت مرجوحة لعلاج ما يقع فيه الناس من انحرافات وأمراض. واليوم في هذا العصر الذي اختلط فيه الجنسان واتصل الرجال بالنساء كل يعاشر الآخر مدة طويلة في الملاعب والملاهي والسينماءات والسهرات والشطوط وغيرذلك منأنواع التسكعات والخلوات فلا يذهبون الى عقد النكاح الا بعد أن يشبع بعضهما من بعض وقد يوجد من بينهما أولاد فيذهبون الى التعاقد بعد عشرة سنة أو سنين وهذه فكرة شائعة عند الكفار فأصابتنا العدوى من الاختلاط بهم وتعلقوا بفتوى الجواز بل أجبرهم القضاء على الزواج بمزنياتهم بدعوى أن أولى الناس بها من أفسدها وتضاءل عندهم شرط التوبة الذي اشترطه المجيزون حتى اختفى تماما فتسبب عن ذلك أن أجبروا على الاقتران بمن لا يرغبون فيهن لان الزنا مفسد للحب مذهب للثقة من القلوب فنشأ عن ذلك أضرار ومآس كثيرة وانتشرت أنواع القتل والانتحارات المادية والمعنوية وارتمى الشباب والشواب بين أحضان الجرائم والفجور واختلطت الانساب، والكتب والمجلات والجرائد ملأى بالقصص المبكية المضحكة، ولانحب الآن أن ندخل في الحديث عن أضرار الزنا فله مواضعه ولكن نتكلم الآن عن نكاح المزنية والاعتماد على هذه الفتوى، ومن غير قيد ولا شرط أباحوه وألزموهما بذلك فنزعت القيود الرادعة وارتكبت الفواحش وتعديت الحدود ووقع الناس في الحرام، ولو صاروا الى فتوى المانعين لكان ذلك أكبر معين على ردع النفوس عن الزنا لانه طالما يعلم أن اتصاله بمن يهوى يمنعه من الاقتران بها فهو يصبر ويستعصم حتى يسعفه الحظ من الاتصال بها حلالا وشرعا ولايقترب منها في حرام أبدا اذا كان يعلم ان ذلك يؤبد عليه تحريمها ومتى رغب فيها وأعجبته ذهب الى أوليائها يخطبها، وكذلك هي اذا رغبت فيه وأحبته فانها تمنعه من الاتصال بها في حرام وترشده الى الطريق الحلال لان اتصالهما في حرام يمنعهما من الاقتران الذي يرغبان

فيه. فانظروا ما فى فتح هذا الباب من البلايا وما فى سده من الحكم و العصمة والابتعاد عن الحرام على أنه الحق الذى يتعين المصير اليه للحديث الصحيح المتقدم الذى فيه أن نكاح المزنية زنا وهو حرام ولقولهم يجعل البحر الاخضر بينهما وقول جابر: ان استطعت أن لا تنظر اليها أبدا فافعل. وقد تكلمت مع بعض علماء المسلمين فى هذه القضية فأيدنى واقتنع بصواب فتوى الاباضية فى الموضوع بعد أن أحس ولمس أخطار الفتوى بالجواز فليس فيها ردع عن فاحشة الزنا كما هى فى فتوى المنع واليوم أصبحت المرأة كأنها متاع أو فاكهة فى حانوت يقال من أراد أن يشترى يذوق أولا فانظروا الى أى حد من الاهانة والابتذال صارت المرأة متاعا فى الاسواق والحال أنها انسان مكرم معزز صيانته فى ستره وعفافه فلو أن الحكومات الاسلامية أخذت قوانينها من الشريعة الاسلامية ومنعت كل من زنا بامرأة من الاتصال بها لاقامت بذلك سورا منيعا متينا بين الفتيان والفتيات فلا يقترب بعضهم من بعض الا بعد الخطبة ثم بعد العقد الشرعى الصحيح. أما النظر فلا بأس به وأهم من ذلك السماع تسمع عن أخلاقها وأوصافها وتصرفاتها فاذا أعجبتك فاذهب الى وليها فاخطبها منه ان اطمأنت نفسك الى أهلها وديانتهم. هذه هى الطريقة السليمة الى الاتصال الشرعى المباح والعلماء الذين أفتوا بجواز نكاح المزنية قالوا اذا كانت قد تابت وأنابت وواظبت على أسباب الطهر والعفاف فجاءت مناسبة فى يوم من الايام فخطبها بعد كل هذه الشروط وليست هذه الطريقة تتبع اليوم، بل يسافح اليوم لينكح غدا، ولا يمكن أن يفتى مسلم بهذا. ولسنا نرجح هذه الفتوى تعصبا لمذهبنا انما أدركنا رجحانها بحوادث الزمان وشيوع الفساد فرأينا فيها علاجا وردعا وطريقا سليما لاصلاح المجتمع الاسلامى وصونه من الانحدار والانهماك، ثم لصحة سند الحديث الذى اعتمدنا عليه فهو السور المتين الذى يمكن ان يحجز بين الفتيان والفتيات ويمنعهم من التشبه بأعمال

اهل الشرك فى أوروبا وأميركا وجهات أخرى. وما يجرى اليوم من الاتصال بين الشباب والفتيات فى المدارس والجامعات أمر منكر ومعصية ظاهرة ولكن ما دام لم يصل الى الاتصال الجنسى والـزنا الحقيقى فلا تحرم، هذه هى الفتوى الراجحة فاذا وقع الاتصال فلا نكاح فنكاحه حينئذ شر من سفاحه. ثم اننا ننبه لهذه المناسبة على عدوى أصابت شبابنا من دول الغرب وهو عزوف شبابنا معشر المسلمين عن البنات المسلمات المتحجبات العفيفات وميلهم الى الفتيات المتفرنجات العاريات يقترنون بهن ويخالطونهن فى الشوارع والملاهى والمسابح، هؤلاء الفاتنات المفتونات اللائى ظاهرهن أنيق وباطنهن خبيث بل حتى الظاهر من اعمالهن واقوالهن وطباعهن قبيح لا خير فيه فهن يعرضن أنفسهن للخلان عرضا رخيصا ولا يردن يد لامس. فالعجب كل العجب من هؤلاء الاغرار المفتونين، يتركون بنات أعمامهم المنشئات على الاخلاق والطهر والعفاف والدين ويميلون الى أولئك الشيطانات اللائى ليس فيهن رائحة دين ولا حياء ولا عفاف، ولا ينفع قرينهن ان كن يحملن شهادات ودكتورات ما دام المطلوب من المرأة الدين والستر والاخلاق فهن أسباب سعادتها وسعادة زوجها لا ما تحمل من شهادات مع خلوها من الدين والفضيلة ثم بعد ذلك لا تمكث فى بيت زوجها بل تكون موظفة فى مكتب او مصلحة او مستشفى ولا حظ لزوجها منها ولا لأبنائها ما دامت هذه عاقبتها وغايتها التى تصبو اليها، والناس كلهم يعرفون حياة موظفات المكاتب حيث الاتصالات بين الموظفين والموظفات والمواعيد المضروبة ولو دخلنا هذا الميادين لغرقنا فيه وطال بنا الكلام وتشعب ولم يعد سرا ما يحدث فى ملتقيات الشباب ورحلاتهم واتصالاتهم والعجب ممن يزعم ان حرية المرأة هى فسقها وتبرجها وتسكعها وكونها متاعا يلتهى به العابثون السفهاء من الناس، ولا يعلم ان الحرية الحقيقة والكرامة الانسانية هو ما منحها أياه الاسلام منذ أربعة عشر قرنا فهى لا

تتزوج الا بمن ترغب وترضى ولا تحرم من حظها المعلوم من الميراث ولا تمنع من التصرف فى مالها ـ ولهن مثل الذى علهين بالمعروف وللرجال عليهن درجة ـ وهذه الدرجة تقتضيها طبيعة فضل الرجال على النساء وهى لازمة لصلاح المجتمع واستقرار نظام البيوت والاسر السعيدة فمن الخير لكم ولمستقبلكم أيها الشباب أن ترغبوا فى الاتصال بالمتدينات العفيفات كما قال نبيكم صلى الله عليه وسلم: ـ تنكح المرأة لجمالها وحسبها ومالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك ـ هذا حق لان كل هذه الاشياء المرغوبة فى المرأة اذا تجردت من الدين كانت وبالا فى المرأة على الرجل واذ وجدت الى جانب الدين كانت زيادة خير وكمال والكمال منشود وليس له على الحقيقة وجود الا لله وكل نقص فى هذه الاشياء مع حصول الدين فمحتمل ومقبول مرجو العوض فى الآخرة مع السكون والطمأنينة وحسن العشرة فى الدنيا وهى السعادة التى ينشدها الانسان فى هذه الدنيا أما اقترانك بامرأة غير متدينة لا تصلى مثلا فهو شقاء الا ان كانت لك قدرة على تعليمها الصلاة وحملها على ذلك حملا حقيقيا فيكون لك أجر لهدايتها أما ما يفعله شبابنا من الاتصال بفتيات لا يعرفن التدين ولا الصلاة فليس هذا من شأن المسلمين ولا تكون عاقبة هؤلاء الا وخيمة فكيف يرضى المسلم ان يقترن بمن لا يصل وكيف يرضاها أما لأولاده وليس بين العبد والكفر الا تركه الصلاة كما جاء فى الحديث الصحيح ـ فمن تركها تهاونا فهو كافر ـ كفر نعمة ومن انكر فرضيتها فهو مشرك مرتد عن دينه، فكيف يقترن المسلم بالكافرة وكيف ينشأ أولادك من أم كافرة والله تعالى يقول : ـ قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ... الآية ـ انه والله لما يدعو الى العجب والاسف الشديد ان يرضى مسلم بخبيثة لا تصلى يرضى بها زوجة ويزول العجب اذا ألقينا ان هؤلاء هم مثلهن لا يصلون ولا يتقون فهم بطبيعتهم الخبيثة يميلون الى الخبيثات مثلهم، وصدق الله

العظيم ـ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ـ فلولا فساد فى نفوسهم وأخلاقهم ما كانوا يميلون الى الفاسدات، وكل يميل الى جنسه. ثم لاتسل عن الذرية التى تنشأ فى حجور هؤلاء الكافرات، وكيف يفلح من لا يرى مفلحا، اننا فى حرج مع هؤلاء الاباء الذين ياتوننا بأولاد كبار فوق سن البلوغ وهم لم يعلموا من أمر الصلاة شيئا ومنهم من لا يحسن حتى النطق باللغة ولا الكتابة بها فاضطررنا ان نكتب ألفاظ الصلاة بحروف لاتنية مع نقل فى النطق وصعوبة فى التهجى وفى العربية حروف لا توجد فى اللاتينية فلا يتعلمون سور الصلاة القصيرة الا بعد جهد جهيد وهم من أمور الدين الضرورية افرغ من فؤاد أم موسى فاحذروا هذه العواقب قبل ان يقترن أحدكم يفكر فى الاولاد فهناك ناس يبكون الدم على أولادهم ولا يجدون من يمسح دموعهم ويقال لهؤلاء : يداك أوكتا وفوك نفخ. وبنات هؤلاء أغيظ لهم ولنا من أبنائهم : لا حجاب ولا حشمة ولا دين. ومن يرغب فيهن الا أمثالهن. أليس الحزم والحكمة ان نبتعد من أول مرة عن الاقتران بالخبيثات ونبحث عن ذوات الدين. فنصيحتنا الى شبابنا المسلم فى كل مكان ان يجتنبوا انفسهم ويريحونا من هذه العواقب السيئة فلا يتورطوا فى هذه المهاوى التى لا قعر لها ولا نجاة منها فلا بارك الله لهم فى هذه الاتصالات الفاجرة ولا بورك لهم فى السافرات المتبرجات العاريات الا يشفقون على جيوبهم ان لم يشفقوا على اديانهم وأولادهم، ان هؤلاء يكلفن أزواجهن مصاريف باهظة لان كل همهن هو ان يتمتعن ويتنزهن مهما بلغت التكاليف ولا شفقة لهن ولا رحمة على الازواج فقلوبهن فى هذه الناحية من حديد، وربما لان الحديد ولا تلين فاذا كنا مع بنات بلادنا المقتصدات المتقشفات نشكو الغلاء والمصاريف فكيف مع هؤلاء المسرفات المبذرات فاربئوا بأنفسهم واشفقوا على دينكم ثم على دنياكم أيها الشباب ولا يفتننكم الجمال الموهوم المموه فان وراءه الحسرات الطويلة والندامات

ولات مندم، وبعد ففيما ذكرنا عبرة للمعتبرين ولا نشك فى حكمة تحريم الله نكاح المزنية. ـ **وحرم ذلك على المومنين** ـ لا سيما وقد رأينا ولمسنا آثار كل نكاح لم يؤسس على تقوى من الله ورضوان، ولم يقترن بذوات الدين. فما أحرى بالمؤمن البصير أن يبتعد عن هذه المهاوى ولا يغره البهرجة والتهاويل فالامر خطير، والعاقل من اتعظ بغيره. ومن أراد بدافع الغيرة أن يأتى ببعض بنات هؤلاء قصد انقاذهن فبشرط أن يتعاهدوا باتباع طريق المسلمين من الحجاب الشرعى واقامة الصلوات وفرائض الدين والا فاتركوا البلاء ولاتأتوا بالعدوى الى بيوتكم فعدواهن أخطر من كل عدوى فى الامراض البدنية فتخيروا لنطفكم فان العرق دساس، كما ورد فى الحديث الشريف واياكم أن تضعوا بذوركم الا فى الارض الطيبة وتفكروا قبل الاقدام واياكم وموارد الندامة وقانا الله واياكم وهيأ لنا من أمرنا السلامة والرشد. ولنرجع الى تفصيل أحكام العقوبات والفرق بين عقوبة المحصن وغير المحصن فنقول: فى الاية عقوبة الجلد وليس فيها ذكر الرجم، فالرجم لم يرد به نص الاية غير أنه ثبت بالسنة الصحيحة المطبقة بالفعل وأجمع المسلمون على صحة ذلك وتواتر نقله جيلا بعد جيل ومثل هذا الاثر لاينكره الا جاهل مكابر لاوزن لانكاره ولاعبرة بخلافه فالزانى الذى لم يحصن بعد يأمر الامام بجلده ثم بنفيه اذا اقتضت الحكمة ذلك كأن يكون كرر العمل فيبعد عن الجو الذى استمرأ فيه المعصية الى جو آخر حتى يسلوها ولايفكر فى الاتصال الحرام مرة أخرى. والزانى المحصن يرجم بالحجارة حتى يموت، وقد أقيم هذا الحد غير مرة فى زمان الرسول (ص) على الرجال والنساء وفى زمان الخلفاء الراشدين وأئمة المسلمين بعدهم. والزنا يتفرع الى أنواع يتعلق بكل نوع حكم خاص هناك الزنا بمعناه الحقيقى وهو اتصال الرجل بامرأة اجنبية اتصال غير شرعى فهذا هو الزنا المراد فى الآية والذى يقام عليه الحد باجماع

المسلمين وهناك اتصال الرجل بمحرمة من ذوات المحارم ولو بعقد فهذا الحكم فيه انهما يقتلان وتصادر اموالهما ترجع الى بيت مال المسلمين وهناك نوع اخر من الزنا وهو عمل قوم لوط، ادخله بعض العلماء فى حكم الزنا : الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن، ولكن وردت أحاديث عن رسول الله (ص) قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به. وفى رواية فاقتلوا الاعلى والاسفل محصنا أو غير محصن. ثم اختلف العلماء فى نوع القتل فبعضهم قال يقتل بالسيف تقطع رقبته كما يقتل المرتدون وبعضهم قال: يرجم كما يرجم الزانى أما مذهب أبى بكر والامام على وجماعة من الصحابة والتابعين فهو أنه يقتل بالسيف ثم يحرق فى نعشه ولا يدفن كما يدفن المسلمون، ويرى بعض الصحابة انه يجعل فى دار عتيقة ويهدم عليه البناء حتى يموت بذلك، وبعض يرى أنه يلقى من جبل شاهق او بناء عال يلقى على ام رأسه فان مات بذلك والاأعيد القاؤه حتى يموت، وهؤلاء استنبطوا الحكم من عقاب الله تعالى لقوم لوط، هذا كله بعد اتفاقهم على قتله وسواء أحصن او لم يحصن هذا اذا كان بالغا اما اذا كان دون البلوغ فيعاقب حسب نظر الامام بما يؤدّ به هذا اذا كان مختارا غير مكره اما اذا أكره فلا عقوبة على مكره والله أعلم وهناك نوع آخر من الزنا وهو اتيان البهائم وقد ورد فى الحديث: ـ ملعون من أتى بهيمة وفى الحديث اقتلوه واقتلوا البهيمة ـ ولا تذبح ذبحا لاكل لحمها فانها لا تؤكل انما هى جيفة تدفن. ثم اختلفوا هل يغرم الفاعل قيمتها ان لم تكن ملكا له. أماالسحاق الذى يقع بين النساء فورد التعزير وهو الجلد دون الحد وكذلك كل اتصال بين الرجل والنساء لم يصل حد الزنا الحقيقى كالمعانقة والتقبيل والمباشرة دون الايلاج فالحكم فيه التعزير تأديبا لفاعله، وكل هذه العقوبات لا تقع الا بعد التثبت وقيام الحجة بالطريقة الشرعية المعلومة كما سيأتى بيانه فى الاية التالية

أما اقرار أربع مرات واما الشهود الاعناء بعد التثبت والرؤية للعمل الحقيقي للزنا ثم يصل الامر الى الحاكم فيقيم الحد عليهما ولا يكفي ان يقر الزاني بمزنيته حتى تعترف هي بنفسها فيقام عليها الحد هذا ما وقع في زمن النبي (ص) وبأمره وحكمه في قصة ما عز : وهو شاب من شباب الصحابة ابتلاه الله فارتكب فاحشة الزنا بعد احصانه فأرشده أحد الصحابة ان يذهب الى النبيء (ص) ليستغفر له فذهب اليه فاعترف بين يديه بفاحشته في المسجد بعد الصلاة فأعرض عنه النبيء صلى الله عليه وسلم حتى كرر اقراره أربع مرات وفي كل ذلك يعرض عنه ثم قال له لعلك قبلت لعلك عانقت، كل ذلك لعله يذهب فيتوب الى ربه فيتوب الله عليه ثم اتجه النبيء الى الصحابةفقال : أبه جنون قالوا لا يا رسول الله فقال : لعله شرب خمرا فقام اليه أحدهم فشمه فلم يجد فيه أثرا للخمر فأمر النبيء صلى الله عليه وسلم به فرجم غير انه قال للذي جاء به لو سترته بثوبك لكان خيرا لك لان النبيء صلى الله عليه وسلم لم يكن حريصا على التجسس وكان يقول : من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فان الستر والحياء من الايمان ويقول : من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله. والقاعدة العامة في الشريعة الاسلامية ان هذه الجرائم التي فيها الحدود كالزنا والسرقة وأمثالها اذا ارتكب احد منها شيئا فما دام أمره لم يصل الى الامام او الحكام فاستتبته فتاب ورد المظالم يمكن العفو والاعفاء لكن اذا وصل أمره الى الامام فلا عفو ولا اعفاء ولابد حينئذ من اقامة الحد ولو تاب توبة نصوحا فان توبته بين يدي الامام لاترفع عنه الحد ولم يكن النبيء (ص) حريصا على البحث عن الموجبات لان ظهورها ظهور للفواحش ولان المجتمع الاسلامي لايصلحه ذلك ولاخير في شيوع الفاحشة فشيوعها هبوط للقيم المعنوية والخلقية في المجتمع فلنفهم السر في قوله (ص) للذي جاء به: ـ لو سترته بثوبك لكان خيرا لك ـ

فلو أنه تاب واستغفر وستر ذنبه لغفر الله له أما وقد أظهر أمره فلا بد باقامة الحد وتوبة تنفعه في الاخرة ترفع عنه عذاب الاخرة، وقد شهد له النبيء (ص) بصدق التوبة فقال فيه: ـلقد تاب توبة لو وزعت على أمة لوسعتهم وقال : انه لفي أنهار الجنة ينغمس فيها كما قال في الغامدية التي أقيم عليها الحد بعد توبتها: لقد تابت توبة لو أنها وزعت على أهل المدينة لوسعتهم، ولولا صدق توبتهما لما ذهبا بأنفسهما الى النبيء (ص) يلحان عليه أن يطهرهما باقامة الحد عليهما. ثم بعد اقامة الحد على المحدود التائب يصلى عليه ويتمتع بجميع حقوق المسلمين من الولاية والدعاء وغيرهما، وفي المرأة اذا ظهر أنها مجبورة على الزنا لا يقام عليها الحد وانما يؤخذ لها العقر من مجبرها وهو عشر الدية اذا كانت بكرا أما الثيب فلها نصف العقر والصبية دون البلوغ لها عقرها ولاعبرة برضاها أو سخطها فتعتبر مجبورة مهما كان حالها وكذلك الصبي له مثل ذلك اذا فعل به ولا ينفع رضاه واذا أجبر بعد البلوغ فله نصف العقر كالثيب أما اذا وافق فلا شيء له وعليه الحد واللعنة اذا لم يتب هذه هي الاحكام التي تتعلق بالموضوع فلا بد بمعرفتها ثم باب التوبة بعد هذا مفتوح فمن ابتلى بشيء من هذه القاذورات فليبادر بالتوبة النصوح قبل الفوات وأداء ما لزم عليه من الكفارات وعلى كل فاحشة من هذه الفواحش كفارة مغلظة نسأل الله العصمة ومن ابتلى بشيء من هذا ثم تاب توبة نصوحا نسأل له التوبة والمغفرة حتى يموت على حسن الخاتمة. ثم ان الله تعالى لما حرم الزنا سماه فاحشة ونهى عن الاقتراب منه فقال جل من قائل: ـولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا ـ والفاحشة في عرف القرآن تستعمل في الذنب الكبير الذي عظم ضرره واتسع خطره لان الفحش في اللغة فيه معنى الاتساع ماكان ضرره يمس جهات مختلفة وكثيرة فكبائر الذنوب تسمى في عرف القرآن فواحش ـ الذين يجتنبون

كبائر الاثم والفواحش ـ ثم زاد فقال الله فى حقه وساء سبيلا وقرر له أحكامه السابقة، الحدود فى الدنيا والعقاب الشديد فى الاخرة وانما يقوم باقامة الحدود أئمة العدل فان لم يكونوا وأمكن جماعة المسلمين أن يقيموها فذلك والا فما أمكنهم من النكال والتعزير والتأديب. وكذلك جميع الشرائع السابقة قررت عقوبة الزناة ففى التوراة الرجم فعند كل الامم أن الزنا رذيلة من أعظم الرذائل وعار يلوث المجتمع كما أن العفة فضيلة من أعظم أنواع الفضائل وذلك شىء فطرت عليه النفوس ولاعبرة بما ابتلى به كثير من ملاحدة هذا العصر وغيرهم ممن مسخوا فلم يعودوا كالبشر مسخت عقولهم وقلوبهم فأصبحت ترى المنكر معروفا والمعروف منكرا فرءوسهم منكسة، أما وضعها فعلى أجسامهم ولكنهم على الحقيقة منكسون فهم على غير الوضع السليم طمست عقولهم وردت وجوههم على أدبارهم فهم لايرون فى الزنا عيبا وهؤلاء اتخذوا مذهب العرى مذهبا فهم يمشون عراة كما خلقهم الله ولا يستترون بشىء ويتسافدون على مرأى ومسمع من الناس فلا حياء عندهم ولا فضيلة وهذا هو المسخ الوارد فى القرآن فى امثالهم من كل زمان ومكان : ـ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا واضل عن سواءالسبيل ـ فهم يتسافدون كما تتسافد القردة والخنازير فى غير حياء ولا خجل وهم كذلك مثل الخنازير لا غيرة لهم على أنثاهم فهذا هو المسخ الذى ليس فوقه مسخ ، ووجود هؤلاء فى كل زمان لا ينقض القاعدة العامة التى تقررتفى الفطر السليمة ونزلت بها الشرائع وهى أن الزنا رذيلة من أعظم الرذائل واتفقت القوانين فى القديم والحديث أن الزنا جريمة تستحق العقوبة ثم اختلفت قوانينهم فى تحديد نوع العقوبة ومقدارها، اتفقوا على تقبيح هذه الجريمة لانها لو فتح بابها لتهدم المجتمع وأتى على بنيان الحضارة الانسانية من

قواعده فينهدم ولا تقوم له قائمة فلا يمكن لذرية آدم حينئذ أن تعمر الارض ولا ان تقوم بخلافة الله فيها كما يجب لان عمارة الارض لا تقوم الا على مجتمعات متماسكة ومتصلة بعضها ببعض اتصالات منتظمة بطريق تأسيس عائلات وأسر وشعوب وقبائل بينهما حقوق وواجبات متبادلة بينهم : تعاطف وتعاون وتناصر والانسان كما هو معلوم مدنى بالطبع لم يخلق للغابات والجبال والبرارى انما خلق ليكون أمما تسودها قوانين وشرائع فلا يمكن لنوع الانسان ان يعيش الا كذلك والخلية الاولى لتكوين الأمة هى الاسرة تتكون اولا من زوج وزوجة مرتبطين ارتباطا شرعيا ثم ينشأ بينهما أولاد شرعيون يحوطانهم بعنايتهما، ـ وجعل بينكم مودة ورحمة ـ وهذه المودة والرحمة لا توجد الا فى بيوت أسست على التقوى من أول يوم أما اللذان يتعارفان فى الشارع ويتصلان اتصالا عابرا يقضيان فيه شهوتيهما ثم يفترقان كالبهائم فلا يكون اتصالهما اسرة ولا عائلة ولا يتقدم بهذا النوع عمران ولا حضارة ولا مدنية، وفى الدنيا ملايين وملايين من الحيوانات والبهائم وهل تقدم بها عمران او حضارة! كلا لا تجد الحيوانات اليوم الا كحيوانات أبينا آدم وأبينا نوح التى حمل منها فى سفينته، هى ملهمة بما يحفظ عليها عيشها ونسلها غير أن الهامها محدود ولذلك تراها تعيش قطعانا ليس بينها نسب معلوم ولا قرابة محفوظة وطبيعة وجودها ما دامت مملوكة لا مالكه ومسوقة لا سائقة ومسخرة فطبيعة وجودها لا تقتضى أكثر من ذلك فلا ضرورة تقتضى انتظامها اسرا وعائلات وانقسامها شعوبا وقبائل، أما الانسان فلا بد من عقد بينه وبين أنثاه ويختص بها وتختص به ثم ينسلان نسلا خاصا بهما ويرتبط ذلك النسل برابطة النسب ثم تتشعب الروابط وتكثر الوشائج والصلات : ـ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ـ هذا ما يحدث بين الزوجين الشرعيين أما الزنا

فلا يحدث بين الزناة مودة ولا رحمة،ان هى الا الشهوة البهيمية يقضيانها ثم يفترقان، ولعل أحدا يخطىء او يعتبر بالالفاظ التى تتبادل بين ابناء الهوى من الحب والغرام فليست الا فوران الشهوة لا غير ثم تنتهى عند قضاء الشهوة فلا تدوم، ولا دوام الا لرباط حلال مقدس سماه الله تعالى: ميثاقا غليظا ـ وقد أفضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا ـ فلا يجوز أن يفصم هذا الميثاق الا لضرورة معتبرة شرعا كأن يكون أحدهما لا يطيق الآخر بغضا فيخاف من بقائهما الا يقيما حدود الله فحينئذ يباح ما كاز ممنوعا وهو الطلاق على الطريق الشرعى المعروف، على هذا الاساس المتين تنشأ الذرية الطيبة بينما الزانى لا يعترف بالأولاد ولا يلتصقون به والزانية لا تكون فى قلبها الرحمة لأنها ترى الولد سبب فضيحتها فربما تتخلص منه بقتله او نبذه بعيدا عنها أو اسقاطه وافساده قبل ان يعلق وعادة ما يفسد ما فى أرحام العواهر باختلاط المياه وتنشأ هناك الامراض والأوبئة الفتاكة مثل الطاعون وذلك لاختلاط المياه العفنة التى تسرى منها العدوى، وفى الحديث الصحيح : ـ وما انتشرت فاحشة الزنا فى قوم الا ابتلاهم الله بالطاعون ـ ومن المؤسف أنه فشا فى شباب العالم اليوم الرغبة عن الزواج مطلقا أو تأجيله الى سن متأخرة فرارا من تحمل مسؤولية العائلة والأولاد، انتشرت هذه الفكرة فى أوروبا وأميركا ومنها فشت فى الشباب العربى وانتشرت انتشارا غريبا كل يكره ويقول لا أتحمل فى عنقى مسؤلية عائلة أنفق عليها انما أقضى لبناتى فى ليلة او ليلتين فى الأسبوع ثم أذهب الحال سبيلي وكذلك النساء يعتقدن هذا فانتشر العزاب وكثر الفساد وكثر أولاد الزنا فتجد رجالا ذوى مناصب علماء ووزراء ورؤساء جمهوريات عزابا، وبعضهم يكره الزواج لانه لم تعد له ثقة فى الكاسيات العاريات الفاسقات فهو لا يحبان يقترن بمن يعرف فسقهن وفجورهن ولو استقاموا لرغب بعضهم فى بعض، وبعضهم لا يرغب فى الزواج حتى

يجمع المال فيتأخر الى بعد الاربعين والخمسين وهذه الظاهرة من فقدان التوكل على الله الذي يقول : ـ وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم واماثكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ـ ويزعمون ان الارض لم تعد تكفى لتموين العدد الذى عليها من الفقراء ومن البشر فتراهم حتى بعد زواجهم يحددون النسل خوفا من الفقر وهذا ينافى الايمان وانتشرت هذه الفكرة فى الاوساط المنتسبة للعلم حتى اهتمت جمعيات التغذية بعدد سكان الارض بعد ستمائة عام فقالوا لا تكفى الارض لايواء هذا العدد الضخم فيصبح لكل فرد على الارض (ياردة) مربعة ونسوا أن هذا التقدير للعزيز العليم الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا، وليس اليهم تقدير الارزاق والاسكان ولا يعلمـون من شأن الغد القريب شيئا فكيـف بالمستقبل وهو بيد الله تعالى: ـ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ـ وبعضهم لا يرغب فى الزواج خوفا من تكاليفه وتكاليف الحمل والرضاع والتربية وما يستتبعها من المصاريف فتراه ميالا الى الراحة وحب الذات يتهرب من هذا الواجب الثقيل ويلجأ الى الفسق والزنا ينال منه لذته المحرمة وذلك لقلة الايمان فلا دين يردع ولا رقيب من تقوى، ومن ذالذى يستعصم مع الشباب وتوفر الاسباب ولذلك أمر الشرع الشباب على الاخص بالزواج ورغب فيه بقدر ما حذر من الزنا لان شهوة الجنس ان لم تجد لها متنفسا ذهبت تفتش يمينا وشمالا فلا تجد وراء ذلك الا الحرام، جاء فى الاثر الصحيح الغازب شيطان، وجاء فى الحديث الصحيح : ـ واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ـ وهذه الآثار وأمثالها علاج للفرد والمجتمع وحماية من آفات الزنا وأسبابه ورغبنا الشرع فى الزواج الباكر حتى ورد فى الحديث الشريف : ـ من كان عنده بنت وبلغت الثانية عشر ووجد لها زوجا فلم يزوجها وارتكبت اثما فانه شريكها فى الدين انه لا حفظ لنوع الانسان

الذى به عمارة الارض الا برباط الزواج المقدس فهو وحده الذى تنشأ به الاسرة لأن نوع الانسان لا يصلح بقاؤه الا بتعاون الزوجين زمانا طويلا على تربية أولادهما فليس كالبهائم التى تتسافد وتذهب لحالها ولا تمكث طويلا فتفطم رضيعها ثم يستغنى عنها ويذهب لحاله وينساها وتنساه. فالويل للعالم والخراب والدمار اذا انصرف الناس عن الزواج فلا تربية ولاعناية ولامودة ولارحمة. فأما عقم وفساد الارحام باختلاط المياه وأما أولاد الزنا الذين بدأوا يكثرون وتحتار فيهم الدول فهم ينشئون كالبهائم لا عواطف ولاأخلاق وهم أولاد الملاجى والتجمعات التربوية وويل للامة التى تسند أمورها الى أولاد الزنا فهم خراب العالم لم ينشأوا فى أحضان الدين فهم قساة القلوب لاشفقة لهم ولارحمة وفاقد الشىء لا يعطيه وهم جراثيم الفساد وآفة الاخلاق بين الناس. هذا هو السبب الذى من أجله اهتم الاسلام اهتماما كبيرا بفاحشة الزنى فشدد فيها وقال: ـ ولاتقربوا الزنا ـ وعالج شهوات الشباب بالامر المؤكد بالزواج ورغب فيه ترغيبا لامزيد عليه حتى وعد على الاغتسال من الجنابة الحلال على كل شعرة حسنة والحسنة بعشر أمثالها. وقال (ص) : وفى بضع أحدكم صدقة فقالوا يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته فيكون له أجر فقال لهم: أرأيتم لو وضعها فى حرام أيكون عليه وزر فقالوا نعم فقال: فذلك كذلك. وللمبالغة فى الابتعاد عن الزنا نهانا عن كشف العورات وامرنا ان نفصل بين الأولاد فى المضاجع اذا بلغوا سبعا وامرنا بغض البصر وأمر النساء باخفاء زينتهن حتى التى تسمع منها ولا ترى كالخلاخيل لان صوتها ربما يفتن ونهيت المرأة أن تتعطر وتخرج فذلك نوع من الاغراء، كل هذه سدود وأسوار تحجز الانسان عن الاقتراب من الزنا وسنمر على الآيات التى هى نص فى الموضوع فى أثناء تفسيرنا السورة ان شاء الله وقد يهتم الاطباء اذا احسوا بخطر وباء من الاوبئة مثل الكوليرا فيلقحون الناس بما يقاومها ويمنع من

انتشارها اشفاقا من الخطر والزنا أخطر من الكوليرا ومن كل وباء فتاك فنرى كم جاء فى سورة النور وسورة النساء وسورة الاحزاب وسورة الطلاق من التطعيمات والوقايات التى اذا استعملناها أمنا الخطر واتقيناه، وفيما اذا لم ينجح الدواء والوقاية فى بعض الاشخاص فآخر الدواء الكى فحينئذ تنفذ فيهم الحدود حتى يوقى المجتمع من خطرهم فيرجم الزانى المحصن ويجلد الذى لم يحصن ويغرب، ان اقتضت الحكمة تغريبه، عاما كاملا فبقدر ما احيطت هذه الفاحشة به من الاسوار المتينة ندرك خطرها على البشرية وقانا الله شرها ـ والله يعلم وانتم لا تعلمون ـ والخلاصة ان الاسلام اعتبر فاحشة الزنى من أخطر الفواحش واتخذ جميع الوقايات منها واعتبرها فاحشة يتضرر منها المجتمع ولذلك حد فيها حدا وأمر ان يشهده طائفة من المومنين للتشنيع بفاعلها وليعتبر به غيره ولم يفرق فيه بين طبقة وطبقة كما هو فى تشريع ما نو عند الهنود فانهم فرقوا بين الطبقات طبقة شريفة وطبقة منبوذة فعندهم اذا زنى رجل من المنبوذين بامرأة شريفة فجزاؤه أنهم يقطعون مذاكيره وفى بعض الشرائع يربطونه بسرير من حديد ويحرقونه، واذا زنت امرأة شريفة برجل منبوذ يحرقونها أما اذا زنى رجل بامرأة من طبقته أو ممن هى دونه فى الشرف فلا عقوبة عليه وهذه انحرافات كما هو عند جاهلية العرب يبيحون الزنى بالاماء ويحرمونه على الحرائر فجاء الاسلام فرفع نظام الطبقات لا فرق بين طبقة وأخرى يعاقب الزانيان مهما اختلفت منزلتهما ولافرق الابين متزوج وعازب كما تقدم. واليوم فى قوانين اوروبا واميركا لا يعتبرون الزنى جريمة يعاقب عليها القانون الا فى بعض الصور كاعتباره خيانة أحد الزوجين للآخر فاذا تسامحا وتواطئا على ذلك فالامرمباح لا عقاب عليه قانونا، وفى صورة ما اذا تعدى الرجل على امرأة وأكرهها على الزنى تطبق عليه العقوبة أما اذا تراضيا عليه فلا دخل حينئذ للقانون ولا لاى كان وفى صورة ما اذا

وقع الزنى بزوجة الغير وطالب بحقه يعتبرونها جريمة تعدية اما اذا رضى الزوج فلا جريمة ولا عقاب وهذه كلها انحرافات لا تطهر المجتمع من آفة الزنى وآثاره الوبيئة على النسل وعلى المجتمع كله. والشذوذ الجنسى وهو عمل قوم لوط أصبح عندهم أمرا عاديا لا يعتبرونه جريمة يعاقب القانون عليها ولا يطرد أصحابه من المجالس العليا للدولة مثل مجلس البرلمان والوزراء وهذا انحطاط كبير وتردى الى هوة سحيقة من الخبائث ـ ومن لم يحكم بما أنزل لله فأولئك هم الفاسقون ـ هذا وبقيت مسألة تتصل بموضوع الزنا وهو اتيان المرأة من دبرها جاءتنى أسئلة فى الموضوع فالجواب كما يلى : روى عن النبىء (ص) قال : ـ ملعون من أتى امرأة فى دبرها وذكر سبعة أصناف لا ينظر اللـه اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وذكر منهم من أتى امرأة فى دبرها . ـ والقول المشهور عندنا معشر الاباضية انها تحرم عليه بذلك كما هو مقرر فى كتاب النيل انها تحرم بتأبيد، ورخص بعضهم انها لا تحرم عليه ولكن يتوبان الى الله ويعطيان كل واحد منهما خمسة دنانير، وفى الحديث الشريف : ـ من أتى حائضا أو امرأة فى دبرها او اتى كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد (ص) فهى على كل تاويل فاحشة من أكبر الفواحش التى تجب فيها كفارة غليظة وتوبة نصوح. ثم ان العلماء اختلفوا : هل على كل فاحشة كفارة واحدة ولو تعددت المرات أو على كل مرة كفارة، ولعله يكفى مع التوبة النصوح كفارة واحدة لكل نوع ولو تكرر كالذى ترك صلوات كثيرة عليه كفارة واحدة الا اذا عاد الى الذنب بعد التكفير فحينئذ تجب عليه كفارة جديدة. ثم تأتينا مسألة تتصل بموضوع الزنا وهى الاستمناء باليد وهو محرم باتفاق جمهور علماء الامة وهو زنى اليد وهو ناكح يده عليه وعيد شديد صح به الاثر وهو من العادين ـ فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون ـ وصح النهى عن النبىء (ص) وتكلم الاطباء كثيرا فى الامراض التى

تخلفها هذه العادة الخبيثة فى الجهاز التناسلى وقد تبلغ بصاحبها حد الجنون والموت فى بعض الاحيان وتنتهى بصاحبها الى العنة فلا يستطيع ان يأتى زوجة ويظن بالناس الظنون ويلجأ الى انواع الخرافات لقصد العلاج وهو الذى تسبب فى ذلك بانحرافاته وشذوذه الجنسى او ألفه لهذه العادة السرية الخبيثة فليحذر الشباب وليقلع الذين ابتلوا بها لعل الله يتوب عليهم ويفرج على المصابين منهم. وكثيرا ما يؤدى الامر أخيرا الى الطلاق من أجل تهم باطلة تسببت فى الفراق وكثيرا ما ترفع الى قضايا من هؤلاء الشباب فاتفاوض معهم واعظهم وانصحهم بالتوبة والاقلاع فاتقوا الله أيها الشباب واحذروا هذا العمل الخطير فانه خطير حقا على دينكم ودنياكم وقاكم الله وهداكم. ـ **والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم.** ـ هذا نوع من الادب الربانى العالى الذى يراد به تطهير المسلم ثم تطهير المجتمع الاسلامى كله من شيوع الفاحشة ومن وقعها فالزجر الاول انما كان باقامة الحد على فاحشة الزنا والزجر الثانى وفيه حفظ أعراض المسلمات والمسلمين وهو المبالغة فى أخذ القاذفين بعقوبة الجلد فى الدنيا وتخويفهم بعذاب الله فى الآخرة فهذان الحكمان مع ما سيأتى فى السورة من أحكام واوامر ونواه وآداب يكون مجموعها خطة منظمة محكمة كاملة اذا اتبعها أئمة المسلمين فنفذوا احكامها واتبعها الناس فائتمروا بأوامرها وانتهوا بنواهيها وتأدبوا بآدابها ووقفوا عند حدودها ومعالمها خرجت منهم أمة هى خير أمة أخرجت للناس طاهرة نقية عفيفة تقل فيها العداوات والاعتداءات وتسلم من عواقب السوء كلها. وعند تأمل مقدار هذه العقوبة الغليظة يتعجب الانسان بادى الراى من شدتها فهى تقرب من عقوبة الزنا نفسها وليس بينهما الا فرق يسير فى العدد نعم تستحق هذه الجريمة

كل هذه العقوبة لانها لا تقل كثيرا عن فاحشة الزنا فى أفساد المجتمع واشاعة الفاحشة مع الاضرار بالمحصنات وهتك اعراضهن وتكوين جو موبوء وبيئة فأجرة لاتتفق وتعاليم الاسلام ونقاوة مجتمعاته. جعل الله القذف منكرا وبهتانا من القول يستحق مرتكبها عقوبات متنوعة ـ فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ـ ثلاثة أنواع من العقوبات:العقوبة الاولى هى الجلد ثمانين جلدة للرجال والنساء وفيه ما فيه من الايلام والاهانة، العقوبة الثانية رد شهادتهم فلا تقبل أبدا وسيأتى الكلام فى هذا التأبيد وحكمه، العقوبة الثالثة اعتبارهم فاسقين أى خارجين عن طريق الاسلام وعن مجتمع المسلمين ولم ترد هذه العقوبات فيمن اتهم أحدا بالخمر والسرقة وترك الصلاة مثلا وما ذلك الا لغلظ هذه الفاحشة وقبحها والعار الذى يلتصق بصاحبها، على ان التهم كلها محرمة وعلى امام المسلمين تعزير الذين يتهمون الناس ويكذبون عليهم بما يراه رادعا لهم ولغيرهم، أما تأديب القاذفين بفاحشة الزنا فلم يكل تحديده الى نبيء مرسل ولا الى اجتهاد امام او قاض حتى حدده فى كتابه الكريم وشدد فى تنويع العقوبة ورفع عدد الشهود الى اربعة بينما جميع الشهادات الاخرى يكفى فيها رجلان أو رجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء وقلما يتوفر هذا ومن الصعب جدا ان يرى أربعة رجال وقوع فاحشة الزنا بين رجل وامرأة فهذا شيىء نادر الوقوع اللهم الا فى مجتمع متهتك تعرى رجاله ونساؤه من الثياب والآداب فلم تعد فاحشة الزنى عندهم عارا فهم يرتكبونها جهارا. اما ما يجرى على السنة الناس من التهم فلا يبلغ حد التحقيق ولا يكفى لاثبات التهمة وأكثر ما يشيع من التهم بأطل من القول وزور.فيجب نفى مثل هذا الكلام والغاؤه ورفع مقام المؤمنين والمومنات عن لوثة التهم . ـ لولا اذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين لولا جاءوا عليه باربعة شهداء فاذ

لم ياتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ـ تبدأ القالة تهمة تحوطها خيالات وظنون ثم تصبح حقيقة ثم تتسع وتكبر على تعدد الالسن التى تحكيها فأمرنا الله أن ننفيها ونطفئها و لا ننعشها بالاشاعة على الالسنة الكاذبة والآذان الفاسقة والقلوب الفاجرة التى قد يتظاهر أصحابها بالغيرة وهم يحبون الفاحشة ويغيظهم العفاف والطهر فهم يبحثون عن الاحاديث الفاجرة ويتشممون عن الجيف كما تتشمم الكلاب فى المزابل أو كالجعل يتلذذ بالنتن ويتضرر بالطيب وللناس فى البهائم والحشرات أشباه وأشكال فهم لا يلتذون فى مجالسهم الا بأعراض الابرياء والبريئات ومن ألف شيئا يحن اليه حتى اذا لم يتمكن من اتيانه تسلى بالاحاديث فى مواضيعه والذنب يجر الى الذنب ونعوذ بالله من مكره. أما اعفاء النفوس الكرام فلهم عن هذا ترفع واعراض ولايحبون سماع هذه الاخبار الا اذا عناهم منها أمر متحقق فحينئذ يتصدون له للاصلاح والتقويم والناس مختلفون وسعيهم شتى وقد كتب علماء الاخلاق وطبائع النفوس الشىء الكثير فى هذا الباب. أما هذه الاحاديث فكثيرا ما أحدثت وساوس فى قلوب كانت غافلة بريئة وللنفس حظها والنفس أمارة بالسوء وللشيطان وسائله وحبائله فهو دوما يلقى بها ليصطاد ضعاف الايمان نعوذ بالله من كيده ووسواسه. فالواجب عليك أيها المؤمن اذا سمعت شيئا متحققا من شهود أربعة عدول أن تذهب الى من بيده الامر حتى يقيم الحد واذا لم يتمكن الحد فما أمكن من التعزير والتأديب واياك أن تذكره لغير هذا الغرض وبغير هذا الشرط والا فأنت الفاسق المفترى الكاذب الذى لا تقبل شهادته أبدا وعذاب الاخرة أشد وأبقى. هذا هو حكم الله وتأديبه لنا والله يعلم ما يصلح بالمؤمنين والمؤمنات والله أغير على دينه منا وقد نخطىء فى تقديرنا فنظن الصلاح فسادا والعكس والله عليم بذات الصدور يعلم ما نخفى وما نعلن ثم يجازى كلا على حسب نيته

جزاء عادلا وفاقا فانظروا الى حكمة الله البالغة فى أحكامه التى لو اتبعناها لتكونت منا معشر المسلمين أمة طاهرة نظيفة هى خير أمة أخرجت للناس وهى تدابير ربانية محكمة مفصلة فى هذه السورة التى هى النور يضىء الطريق للمجتمع الصالح الرشيد. ـ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ـ كل ما من شأنه أن يلوث المجتمعات الاسلامية او يحدث فيها بلبلة يحذرنا الله منه ويتوعد عليه أشد الوعيد حتى تبقى مجتمعاتنا بريئة نظيفة متماسكة على العفاف والطهر والاحترام المتبادل فلا عدوان بالقول ولا بالسمع ولا بالنظر وأى اعتداء من هذا القبيل فهو رمى لا يقل خطرا عن الرمى بالسهام والرصاص.

والذين يرمون المحصنات ـ فهو رمى لا مجرد كلام يذهب مع الريح فلنحذر الرمى بالكلام كما لا نترامى بالنار لانه مثلها او اشد منها مفعولا فى مجتمعاتنا. والمحصنات فى عرف القرآن لفظة يراد بها أحد معنيين اما الزواج وهو المراد فى سورة النساء فى الحديث عن المحرمات منهن ـ والمحصنات من النساء ـ أى المتزوجات، حرم على الرجل خطبتهن ونكاحهن وقوله تعالى ـ فاذا أحصن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ـ والمعنى الثانى للاحصان فى القرآن هو العفة والطهارة فالمحصنات هن العفيفات الطاهرات ومنه وصف مريم العذراء عليها السلام بالاحصان وذلك حيث يقول تبارك وتعالى ـ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ـ فمريم لم تتزوج وانما هى محصنة بمعنى عفيف وذلك نظير قول الشاعر : ـ حصان رزان ما تزن بريبة ـ وهذا المعنى الثانى هو المراد هنا فى هذه الآية الشريفة ـ والذين يرمون المحصنات ـ أى العفيفات البريئات ، متزوجات او غير متزوجات يرمونهن بالزنى كما يدل عليه سياق الآية ما قبل وما بعد وهو المعنى المراد باجماع اهل التفسير والفقه وقاسوا على المحصنات من النساء المحصنين من الرجل لحرمة عرض المسلم

من حيث هو مسلم لا فرق فيه بين ذكر وأنثى والحكمة فى ذكر النساء هنا لأن تضررهن بالرمى أبلغ والعار يتعدى الى ذويهن وفى مواضع أخرى كثيرة يدخلن مع الرجال بالتغليب حيث يرد الأمر والنهى او الحكم على صيغة المذكر فيدخلن فى الخطاب ما لم يقم دليل على تخصيص احد الجنسين دون الآخر فعلى امام المسلمين اقامة هذا الحد على القاذفين والقاذفات كما فعل النبىء (ص) بحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش رضى الله عنهم أقام عليهم الحد ثمانين جلدة على كل واحد منهم واستغفروا وتابوا تاب الله عليهم. وفى عهد خلافة عمر بن الخطاب وجهت التهمة الى المغيرة بن شعبة فجلد الذين قذفوه الحد كاملا على كل واحد من الثلاثة وأعفى الرابع من العقوبة لانه شهد بما رأى ولم يحقق جريمة الزنى وعليه أجمعت الامة ان من اتهم رجلا بريئا يقام عليه الحد كاملا كمن اتهم بريئة، وقال فريق من العلماء المراد بالمحصنات النفوس المومنة العفيفة فيدخل الرجال بالنص لا بالقياس والله أعلم ولم يقل أحد من الصحابة ولا التابعين أن الحكم خاص بالنساء دون الرجال ثم ان القذف ما يكون بالتصريح او بالتعريض الواضح الذى يكاد يكون تصريحا كأن يقول للولد هو ابن الزنا أو بنت زنا او ابن الحرام ولا معنى لهذا الا اتهام أبويه بالزنا غير ان هذا يعزر ولا يقام عليه الحد كاملا ما لم يكن تصريحا بتحقيق فاحشة الزنى وهو الذى تنطبق عليه العقوبات الثلاث المذكورة هنا على القاذفين ومن التعريض ما يكون من جنس ما وقع فى زمان الخليفة عمر رضى الله عنه فقد جمع وجوه الصحابة يستشيرهم فى أمر وقع فى زمانه وهو انه تساب رجلان فقال أحدهما للاخر : لم يكن أبى زانيا ولا أمى كانت بغيا، ففيه تعريض بأخيه ان أباه وامه كانا زانيين فشكاه الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتداولوا وجوه الرأى فقال أحدهم : هذا رجل مدح أبويه وليس فيه تصريح باتهام

غيرهما وقال آخرون : أليس له صيغة لمدحهما الا هذه الصيغة التى ليس فيها الا اتهام الطرف الثانى من السباب. وهذا ما أخذ به عمر بن الخطاب فأقام عليه الحد ووافقه بقيتهم على ذلك وهذا أشبه بالصواب لان المستمع لهذا السباب لايفهم الاأن أبوى الثانى زانيان فالمضرة حاصلة للمسبوب ومن أجلها شرع الحد والله أعلم . ثم ان الكلام فى هذه الاحكام واسع لتعدد كيفيات القذف فقد يكون الرامى سكرانا وقد يكون صبيا وقد يكون مجنونا وهل اذا رمى مسلم ذميا يقام عليه الحد؟ فى المسألة خلاف وهذا بعد اتفاقهم انه ذنب كبير وفرقوا فى تهمة صبى دون البلوغ فأوجبوا الحد على من اتهم صبية مراهقة لان ذلك يفسد عرضها وعرض ذويها ولم يوجبوه على من اتهم صبيا وهذا فرق معقول وفى المسألة أحكام فقهية تطلب فى المطولات كل هذا اذا لم يعف المتهم قبل ان يصل الامر الى الحاكم اما اذا عفا قبل ذلك فلا عقوبة كل هذا مبسوط فى كتب الاحكام لمن اراد التفقه. ثم بعد هذا الحد الغليظ الذى يقرب من حد الزنى يحكم الله تعالى على القاذف بحكم آخر قاس وذلك حيث يقول جل من قائل ـ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ـ ما دام حيا ما دامت الدنيا لا تقبل شهادة القاذفين المفترين على الناس فى بيع ولا رهن ولا وصية ولا عقد من العقود مطلقا فهو مردود أبدا لانه ظهر زيفه وكذبه فى هذه القضية فلا يؤمن فى غيرها لا فى معاملات ولا فى عبادات. ثم حكم عليه بالفسق فقال ـ فاولئك هم الفاسقون ـ ومن المعلوم ان وصف الفسق لا يستعمل الا فى الكبيرة المخرجة عن طريق الاسلام وهذان الحكمان يسقطانه عن مركزه فى الهيئة الاجتماعية وهذا يشبه ما يعبر عنه اليوم باسقاط الحقوق المدنية وهو نوع من العقوبات المقررة فى القوانين الحديثة. والمؤمنون عدول شهادتهم تقبل على بعضهم البعض ولكن هذا المجلود الفاسق تسقط شهادته عن حد الاعتبار فهى مردودة غير مقبولة ثم تكلم اهل التفسير والعلم فى الاستثناء الوارد بعد

هذه الاحكام هل يرجع اليها كلها او الى بعضها ـ الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفورا رحيم ـ فهل هؤلاء التائبون يعفون من الجلد وتقبل شهادتهم وينجون من عذاب الآخرة ومن وصف الفسق، او يعود الى الجملة الاخيرة فقط يرفع عنهم وصف الفسق وآثاره ولا يرفع عنهم الحد ولا تقبل شهادتهم، والخلاف مبسوط فى كتب الفقه والاحكام ونرى حصر الخلاف فى الجملة الوسطى فقط، لان الامة اجمعت على ان التوبة لا ترفع الحد عن المحدود واجمع العلماء ان الاستثناء يتناول الاخيرة من الجمل والا فلا يكون لوروده معنى فهو يرفع وصف الفسق وآثاره عن المحدود فيبقى الخلاف محصورا فى قبول شهادته بعد صدق توبته فقال بعض الفقهاء تقبل اذا تاب واستقام على توبته وظهر صدقه وصلاحه، ولكن الجمهور على ان شهادته لا تقبل أبدا وهو القول الذى نميل اليه ونرجحه لوجوه أولا: لذكر التابيد فى المسالة فهو يقتضى مدة اطول من المدة التى بين القذف والتوبة وقد تكون قصيرة، ثانيا اذا كان الاستثناء يتعدى الحكم الاخير فما الذى يقصره على الحكم الوسط دون الاول وهو قطعا غير داخل كما بينا وذكرنا أن رسول الله (ص) والخلفاء الراشدين جلدوا ورجموا ولم يعطلوا الحدود بعد التوبة وفى نفس قضية القذف جلد القاذفون بعد ثبوث توبتهم فالتوبة اذا لا تسقط الحكم انما هى تنفع لرفع عقوبة الآخرة متى صدقت ثالثا : والنظرالاخيرالذى يرجح ما ذهبنا اليه كما أشار اليه بعض المحققين هو ان هذه الاحكام الثلاثة جاءت على ثلاث صيغ : الاولى أمر ـ فاجلدوهم ثمانين جلدة ـ الثانية نهى ـ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ـ الثالثة اخبار ـ واولئك هم الفاسقون ـ فجاء الحكم الاخير مخالفا فى أسلوبه للحكمين السابقين فلم يقل احكموا عليهم بالفسق وانما حكم عليهم بانهم فساق وقال بعد : ـ الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم ـ ولم يقل ـ فاعفوا عنهم ـ فلما كان هذا الحكم الاخير من خصوصيات الله

وهو تبارك وتعالى وحده يعلم حقيقة توبتهم واصلاحهم فيدل هذا ان مرد الاستثناء الى الحكم الاخير وحده وهو يعلم التائبين من الفاسقين وتذييله بان الله غفور رحيم . يزيد الامر ترجيحا ان المراد مغفرة ذنبهم ورفع عقوبة الفسق عنهم وهذا جواب لسؤال ينشا عن الحكمين السابقين فكأن قائلا يقول أرايت ان جلدناهم وأسقطنا شهادتهم عقوبة لهم ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا فماذا يكون مصيرهم عندك يا رب فاجابنا بان مصيرهم بعد توبتهم مغفرة الله ورحمته التى هى مصير التائبين جميعا ويزيد المعنى وضوحا عطفه بالفاء التفريعية ـ فان الله غفورا رحيم ـ هذا ما نلحظه فى هذا المبحث ونرجحه والله اعلم. ثم ياتينا سؤال فى الموضوع وهو ما موقف من رأى شيئا من هذه الفواحش تؤتى ماذا يصنع؟ وهو بين امرين اما ان يتوفر له ثلاثة شهود هو رابعهم شاهدوا الفاحشة جميعهم شهودا لالبس فيه فحينئذ يبلغون الحاكم ليقيم الحد على الزانيين واما ان لا يتوفر له هذا العدد فيسكت ويستر الامر ولا يعرض نفسه لهذه الاحكام القاسية التى لايعفيه منها كونه صادقا عند الله فهذا حكم الله لانه اذا نطق فقد أشاع الفاحشة بصورة لم يأذن بها الشرع وتكلم بعض فقال : كيف يحكم عليه بالكذب ويمكن أن يكون شاهدا ورأى حقا ويتعجبون من هذا الحكم وهل لاجل غياب الشهود يسمى كاذبا. هكذا أراد الله أن تكتم وتستر ما لم يتوفر الشهود فلا تخالف أمر الله لانك اذا نطقت بالتهمة فقد أشعت الفاحشة فى مجتمع طاهر نظيف فاما أن تأتى بالشهود فيقام الحد فهو العلاج لقطع الداء الذى هو خطر على المجتمع واما أن لايتوفر الشهود فتشيع الفاحشة بصورة لاتكفى لاقامة الحد على المتهم فلا بد بعلاج يقطع هذا الوباء المنتشر ، فالدواء حينئذ أن ترجع بالعقوبة على باعث هذا الوباء وهو الذى نطق بالفاحشة وأشاعها بغير سلطان من الله فهو الفاسق الكاذب الجانى على الفرد والمجتمع والاحكام تتعلق بالبيانات

والبينات انما تثبت على توفر الجهود ولا طريق لثبوتها الا ذلك فمن خالف الحكم الظاهر فهو الكاذب وربما يثير البعض شبهة وهى اننا ان سكتنا على مثل هذا تقع المضرة ويتجرأ العاصى والجواب عنها أن اشاعتها مع عدم امكان اقامة الحد أوسع ضررا وأعظم خطرا على المجتمع ففى كتمانها ضرر على العاصى وحده مع امكان نصحه ووعظه وتخويفه وفى اظهارها خطر على المجتمع كله فالواجب علينا أن نتأدب باداب الله العالية ونكف ألسنتنا ونتق الله وكل من أتى ما يوجب الحد فاما يقام عليه فى الدنيا واما ان يقتص منه فى الآخرة ورحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم، وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم وقانا الله عثرات اللسان.

ـ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرؤ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم. ـ هذا حكم آخر من أحكام الله تبارك وتعالى فيما يتعلق بهذه الفاحشة الكبرى والقذف بها وقد تقدم حكم رمى المحصنات عموما لا فرق بين أن يكون الرامى زوجا او غيره وهذه الآية تضع حكما خاصا اذا كان الزوج هو الرامى وهو فرق معقول جدا اذ لا يمكن للزوج ان يرى الفاحشة فى زوجه ثم يسكت فيصبح ديوثا ولما نزل حكم القذف العام كبر الامر على الصحابة فيما يتعلق بالزوجة حتى اندفع سعد بن عبادة سيد الانصار فقال للنبىء(ص) أهكذا أنزلت؟ وجعل يردها على النبىء (ص) حتى تأثر رسول الله (ص) فقال للانصار الحاضرين : يامعشر الانصار أتسمعون ما يقول سيدكم فأجابه الانصار قالوا : لا تلمه يا رسول الله فانه رجل

غيور والله ما تزوج امرأة قط الا بكرا والله ما طلق امرأة قط فاجترأ أحد منا ان يتزوجها لشدة غيرته. ثم ان سعدا قال يارسول الله والله انى لأعلم أنها لحق وانها من الله ولكن عجبت انى اذا وجدت لكاعا تفخذها رجل لا يكون لى ان احركه واهيجه حتى آتى بأربعة شهداء والله لا آتى بهم حتى يكون قد قضى حاجته. كبرت هذه الآية على الصحابة رضى الله عنهم واشتد الامر على النبيء صلى الله عليه وسلم حتى جاء عويمر العجلانى فقال: يا رسول الله : اذا وجد أحد منا رجلا مع امرأته فان قتله قتلتموه وان تكلم جلدتموه وان سكت سكت على غيظ يبتلع جمرا فى قلبه ويموت بالغيظ، كيف يفعل يا رسول الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم أحكم. فلم تمض الا أيام قليلة فاذا بهلال بن أمية من الانصار جاء يسعى الى النبى (ص) قال له: يارسول الله جئت عشاء الى اهلى ووجدت رجلا مع امرأتى رأت عيناى وسمعت أذناى فقال له اتق الله ياهلال فقال يارسول الله والله انى لصادق فاشتد الامر على النبيء (ص) فقال هلال والله انى لصادق والله لم ازد ولم انقص فقال له النبيء (ص) البينة او حد فى ظهرك فشق الامر على النبيء (ص) وضاق الامر على الناس وقال هلال والله لأرجو أن يجعل الله لى من أمرى مخرجا. فقال النبيء (ص) حكم الله البينة او الجلد فكاد يجلده لولا ان لطف الله به فنزل الوحى فلما سرى عن النبيء قال (ص) أبشر يا هلال قد جعل الله لك مخرجا وقرأ عليه الآية ـ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم أربع شهادات بالله انه من الصادقين الآيات. ـ يشهد الرجل اربع شهادات بأنه صادق فى اتهام زوجته والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم ينادى القاضى المرأة ان تشهد أربع شهادات بالله انه كذاب والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين. فنادى هلالا وبعث للمرأة فجاءت فقال لها: الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل فيكما من تائب وأعاد عليهما

ثلاث مرات ووعظهما وقال لهما : لعذاب فى الدنيا أيسر من عذاب الآخرة فتمسك كل منهما بقوله فبدأ بالزوج فوجه التهمة الى زوجته ويقول: أشهد با لله انى لصادق فلما كررها أربع مرات قال له النبىء(ص): اتق الله يا هلال فقال يارسول الله انى لصادق ثم أردف أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم التفت النبىء (ص) الى المرأة فشهدت أربع شهادات تقول أشهد بالله انه لمن الكاذبين وقبل أن تشهد الخامسة خوفها النبىء (ص) وقال توبى الى الله، لعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وقال انها الموجبة فتلكأت المرأة ساعة حتى كادت تعترف ثم قالت: والله لأفضح قومى فشهدت الخامسة قالت غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق بينهما رسول الله (ص). وأفتى أهل العلم أنها تحرم عليه بتأبيد ويلحق الولد بأمه وبعضهم قال يكفى اللعان واشترط البعض لفظ الطلاق للتفريق بينهما أو يلفظ القاضى: ـ فرقت بينكما ـ وفى هذا الحكم لطف من الله تبارك وتعالى ـ ولولافضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم ـ هذا شرط ولا جواب له وقدر له بعض أهل التفسير جوابا وهو نحو: لجعل لكم حكما آخر. ولكن الله يعلم ضعف نفوسكم ويعلم الحالة التى تصيب الزوج اذا شاهد بعينه وان حالة الزوج ليست حينئذ كأى شخص آخر فالعلاقة متينة بين الزوج وزوجه والغيرة شديدة فكيف يمكن أن يرى ويسكت ويبعد فى التقدير أن يتهم الزوج زوجته لغير شىء لانه حينئذ يطعن صدره بخنجر ويشكك الناس فى أولاده الا اذا كان فاجرا ممسوخا يريد أن يتنصل من زوجته ولو بالتهمة الباطلة فشرع الله لها أن تدافع حينئذ عن نفسها بشهاداتها ولايصح لها والحالة هذه أن تبقى معه كما لا يصح له أن يبقى معها متى كان صالحا وكانت فاسقة. هذا حكم الله فى اللعان لمن شاهد ورأى وكذلك قاسوا عليه من قدم من سفر ووجد زوجته حاملا بجنين محقق أو ولدت وهو بعيد عهد بها فيلاعنها حينئذ لينفى الولد

ويفارقها. وقد كانوا فى الجاهلية لاينتظرون بهذه الحالة الا أن يقتلوا المرأة والرجل فلما جاء الاسلام وهو دين العدل والرحمة شرع هذا الحكم العادل حفاظاعلى المرأة الضعيفة أن تكون متهمة أو مقتولة لسبب آخر ثم تلصق بها التهمة فشرع الله هذا الحكم ولم ينزل الا بعد حدوث الواقعة حتى يكون أوقع فى النفوس فتقبله المسلمون بقلوب مسلمة منشرحة وأغلب الاحكام تنزل بعد حدوث الاسباب وفى ذلك ما فيه من الحكمة البالغة ونذكر منها حديث الافك الذى سيأتينا قريبا ويريد الله أن يجعل ضحيته زوج النبىء (ص) لحكمة يعلمها والله عليم حكيم. ولو شاء الله لنزل الحكم مع الحكم العام قبل أن تقع هذه الحادثة ولا حديث الافك وللعلماء فى هذا كلام طويل فى الحكم والعبر التى تستنبط من هذه الواقع وفى شرع الله تعالى لنا تطهير وتأديب لمجتمعاتنا ورجالنا ونسائنا وضل قوم يزعمون أن أحكامهم الوضعية أنسب وأليق من أحكام القرآن والسنة ان هؤلاء ليسوا مؤمنين ـ فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ـ والذى أنزله الله كله هو النور لنا ومن سار على النور لايضل وفى النساء متاهات ضل فيها القدامى والمحدثون فجاءت هذه السورة التى هى سورة النور فوضعت الحدود وفصلت الاحكام وازالت الشبه ورفعت الحيرة فهى هدى ونور فى أعظم قضية شغلت افكار العالم قديما وحديثا ولم يهتدوا ولن يهتدوا الا اذا اتبعوا هدى القرآن ومشوا على نوره المبين فلله ما أعظم نعمة الاسلام وأشمل بركته فى الدنيا والآخرة على من اتبع هداه ـ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون. ـ

ـ ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير

لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم لولا اذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا ان كنتم مومنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ـ هذه عشر آيات مفصلات فى حق عائشة أم المومنين الصديقة بنت الصديق رضى الله عنها اتهمها المنافقون لعنهم الله وهى الطاهرة البريئة أطلقوا السنتهم فى عرضها شهرا كاملا وارجأ الله تعالى انزال هذه الآيات وهو يعلم براءتها لحكمة هو بالغها ولنروى قصتها كما روتها هى عن نفسها. تجهز النبى صلى الله عليه وسلم ومعه بعض الصحابة لغزو بنى المصطلق قوم ينزلون على ماء يسمى المريسيع على ساحل البحر (بين رابغ وجده) فأقرع بين نسائه فخرجت القرعة لعائشة فخرجت معه فجعل لها هود جا على جمل خاص وفى بعض منازل الطريق عند رجوعهم من الغزوة ظافرين نزلوا ليلا فذهبت عائشة لقضاء حاجتها وبعد رجوعها أحست بضياع عقدها فذهبت تبحث عنه فلم تجده الا بعد وقت طويل فلما رجعت الى المعسكر اذا بهم قد ارتحلوا فلا داعى ولا مجيب فلزمت مكانها حتى اذا رجعوا اليها وجدوها وبينما هى متلحفة فى خمارها تنتظر اذا باحد الصحابة وكان تخلف عن الركب لبعض الاسباب فلحق وهو الصحابى البدرى العفيف صفوان بن المعطل السلمى رضى الله عنه فلما رأى هذه

المتلفعة عرفها عائشة فحوقل واناخ جمله ولم يكلمها فركبت وقاد الجمل ولما لحق بالقوم وكان فيهم منافقون فلما مر على عبد الله بن ابى قال لعنه الله : والله ما نجت منه ولا نجا منها، امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى الصباح فجاء يقودها، ثم ان الكلمة شاعت بين المنافقين ولم يسلم منها ضعفاء المومنين قالت عائشة ولم انتبه لشيء مما وقع فيه الناس ثم انها مرضت بالحمى واشتد مرضها قالت ولم يبلغنى ما يخوض فيه الناس من الافك الا انى رأيت ازورارا فى معاملة النبيء اياى فقد كان يهتم لمرضى ويسلينى ويجلس طويلا غير أن هذه المرة فقدت عطفه القديم فكان لا يزيد اذا دخل ان يقول : كيف تيكم، قالت فتعجبت من هذه المعاملة فاستاذنته ان اقضى ايام المرض عند والدى فاذن لى فذهبت ومضت علينا بضع وعشرون ليلة وما شعرت بشيء من حديث الافك وبينما هى فى ليلة من الليالى خارجة لقضاء حاجتها معتمدة على ممرضتها أم مسطح عثرت أم مسطح فى لحافها فقالت تعس مسطح فقالت عائشة بئس ما قلت، احد من المسلمين شهد بدرا فقالت ألم تسمعى الم يبلغك ما يقول الناس عنك؟ فحينئذ قصت عليها الخبر كما هو واقع فاشتد الامر على عائشة ولاذت بالبكاء ثم انها عاتبت أمها أنها لم تخبرها بما وقع فقالت لها : أى بنية خفضى عليك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ولها ضرائر الا كثرن وكثر الناس عليها، فهونى عليك فسيجعل الله لك مخرجا ان كنت صادقة. فاستمرت فى بكائها طوال الليل حتى قالت ظننت أن البكاء فالق كبدى ومضت عليها ليلتان قالت لم أذق طعم المنام قالت فلما أصبحت جاءها أبو بكر وأمها أم رومان فجلسا معها وهى غارقة فى البكاء وجاءت امرأة من جيرانها فجعلت تبكى معها قالت فبينما نحن كذلك دخل علينا رسول الله (ص) وهو فى قلق شديد، انه ينتظر الوحى فى كل ساعة ولكن لكل أجل كتاب وقد كان قبل ذلك سأل أهل البيت

ومولاه أسامة وجاريته ولم يقولوا الا خيرا. ثم انه تشهد وخاطب عائشة قائلا: ان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله قالت عائشة فجف دمعى فقلت لابى أجب عنى رسول الله فقال والله لا أدرى ما أقول فالتفتت الى أمها فقالت مثل ذلك ثم التفتت عائشة الى النبىء (ص) فقالت: والله انى أعلم أنى اذا قلت فعلت والله يعلم انى بريئة تصدقوننى واذا صدقت تكذبوننى ولكنى أقول كما قال أبو يوسف عليهما السلام ـ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ـ قالت فتلفعت فى لحافى ونمت وتركتهم حيارى قالت فوالله لم يتحرك أحد من مكانه حتى نزل الوحى على رسول الله (ص) فلما سرى عنه تهلل وجهه وهو يبتسم فأول كلمة قالها: أبشرى يا عائشة فقد برأك الله. فقالت لها أمها: قومى الى رسول الله فقبلى رأسه فقالت عائشة والله لا أحمد الا الله فهو الذى برأنى بعد ان شككتم. ثم تلا عليهم رسول الله (ص) هذه الآيات العشر: ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ... الايات. فسرى عن عائشة رضى الله عنها عند سماعها هذه الآيات وشفيت من مرضها ورجعت منزلتها عند زوجها النبىء (ص) أرفع مما كانت ثم انه أقام الحد على القاذفين الذين صرحوا بتحقيق التهمة وهم ثلاثة: مسطح بن أثاثة الكلبى وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وتابوا رضى الله عنهم. أما بعض كبار المنافقين الذين خاضوا فى الافك مثل عبد الله بن أبى ورفاعة أحد منافقى اليهود فلم يحدهم لحكمة رآها النبىء (ص) وقال البعض لانهم لم يصرحوا بما يؤخذون به ثم ان أبا بكر رضى الله عنه غضب على مسطح وهو ابن خالته وكان يحسن اليه ويوتيه حق القرابة لفقره وقرابته فحلف ان لا ينفق عليه بعد الذى صدر منه من الزور والبهتان فلم يوافقه الله على هذا الحلف فأنزل قرآنا فى حقه : ـ ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولى القربى

والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا... الاية فتاب أبو بكر رضى الله عنه وكفر عن يمينه ورجع الى احسانه الى مسطح كعادته وسيأتى الكلام على الاية عند تفسيرها. ولنعد الى تفصيل معانى الايات العشر النازلة فى موضوع الافك، قال الله تعالى ـ ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم مااكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ـ تدل الاية أول ما تدل أن الذين جاءوا بالافك جماعة من الناس لا واحد وليس أهل المدينة كلهم فالمهاجرون الاولون والانصار المومنون لم يتورطوا فى هذه الفاحشة ولم يطعنوا فى النبىء ولا فى زوجه، اولئك عصمهم ايمانهم انما الذين تكلموا بالافك عصبة قليلون أوقعوا الشك بكلامهم هذا فى القلوب البريئة المومنة ولم يسلم منه حتى قلب النبىء (ص). والافك ليس كلمة مرادفة للكذب فحسب، بل الافك نوع خاص من الكذب يبلغ درجة قصوى من الفظاعة والظلم ينشأ عنه ضرر كبير فيه كذب وزور وبهتان وظلم، مجموع هذه الاشياء يعبر عنه بالافك والعصبة الجماعة المتفقة على شىء يجمع بينها هدف وغرض يسعون لتحقيقه ولذلك يطلق على جماعات اللصوص والاجرام عصابات لهم خطط يتفقون على رسمها وتنفيذها، فجماعة الافك عصبة متآمرة متفقة على الطعن فى نبىء الاسلام وفى أهله وهذا طعن فى الوحى والرسالة بطريق غير مباشر وليس هو مجرد حديث عابر ثم قال تعالى ـ منكم ـ وليس القصد أنهم من المومنين الصادقين انما هم من جماعة المسلمين فى الظاهر يصلون فى مساجدهم ويدفنون فى مقابرهم نطقوا بكلمة الاسلام مجرد نطق بالسنتهم ولم تؤمن قلوبهم انما صرحوا بها اتقاء على دمائهم وأموالهم لما عجزوا عن مقاومة الاسلام بالقوة ثم يكيدون للاسلام متواطئين فى الكيد مع اليهود وأعداء الاسلام المشركين جمعت بينهم عداوة الرسول (ص) والمسلمين

معه فهم لا يفتئون يكيدون ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. ـ لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ـ هذه تسلية من الله للمومنين ونبيئهم لا تظنوا هذا البلاء الذى ابتليتم به شرا ومضرة بل هو خير لكم، وكان يمكن نفى الشر كافيا لثبوت الخير ولكن الله تعالى أراد أن يؤكد الامر باثبات الخيرية وهنا يجب الوقوف فى قوله تعالى ـ بل هو خير لكم ـ كيف هذا الخير أما نفى الشر فقد رجع على أهله ـ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ـ كل واحد منهم يجازيه الله على قدر خوضه فى الافك والله حكمه عدل لا يجور وهؤلاء تواياهم وأقوالهم كلها محسوبة مضبوطة وسيجازون عليها والذى تولى كبر القضية رفع رايتها وهو رئيسهم دولاب الفتنة له عذاب عظيم والذى عظمه الله لا يحيط بوصفه الا الله فويل لهم وويل لراسهم عبد الله بن ابى. ولنرجع الى الخيرية التى أثبتها الله تعالى للمومنين وهى خيرية عظيمة وواسعة وممتدة الى زمننا هذا والى قيام الساعة ما دام القرآن يتلى فالمسلمون يمشون فى هذا النور الذى كان مشرقه عليهم هذه الحادثة التى علمتنا كيف نعالج الاحداث مثلها ولا يخلوا منها زمان ولا مكان فالخير أولا فى الكشف عن هذه العصابة التى جمعها الكيد للاسلام والمسلميـن وكشف أمرهم وهى عصابة تكونت فى المدينة لما قوى امر المسلمين وبثائير مجاورة اليهود اهل الكيد والعدواة للاسلام والمسلمين فلا بد بحادث يفضح أمر هذه العصابة حتى يحذرها المسلمون أهل النوايا الطيبة والفتنة خطيرة اذا كانت من الداخل ثم تتالت بعد ذلك احداث زدات لامرهم كشفا وفضيحة كما وقعت فى غزوة الاحزاب والخندق ويوم تبوك وتكلموا فى قصة زيد وزينب وفى تحويل القبلة وفى تقسيم الغنائم وبنوا مسجد الضرار وفى كل ذلك يفضح الله امرهم ويحذر المومنين من كيدهم وفتنتهم وهذا طبع خبيث مركب فى نفوس اللئام والمنافقين لا يخلو منهم زمان يغيظهم

ان يشهدوا جماعة من الاطهار من أهل زمانهم فى مستوى عال من البر والعفاف وهم فى مستوى منحط من الفجور واللؤم والرذيلة فيؤذيهم هذا الفرق الشاسع بينهم اذبه يظهر نقصهم وانحطاطهم فيحاولون جاهدين الطعن عليهم حتى يتضاءل هذا الفرق وهم يزعمون انهم بذلك يغطون على نقصهم وفجورهم فيضيفون بذلك نقصا الى نقصهم وآثاما الى آثامهم وليتهم اقتصروا على ذنوبهم الاولى فلم يضيفوا اليها ذنوب الطعن والحسد والنفاق ـ ومن يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا ـ والله يعاقب على الذنب بذنب أعظم منه ونعوذ بالله منمكره وليتهم اذ قصروا واذنبوا سألوا الله العفو ولم يعادوا الصالحين ويطعنوا عليهم ولم يضيفوا الى ذنوبهم ذنوبا اعظم منها وهذا هو الضلال الذى يصير اهله الى الدرك الاسفل من النار فلنحذر من معاداة الاولياء الصالحين ونعوذ بالله من شر النفاق والمنافقين ومن شر حاسد اذا حسد. هؤلاء المنافقون لم ينفعهم وجودهم فى خير القرون ولم تفدهم عشرة خير اهل الارض بل ازدادوا بذلك سقوطا وترديا اسفل سافلين فصاروا بعداوتهم لهم والطعنفيهم شر أهل الارض، أخر الله تعالى انزال آية البراءة شهرا كاملا حتى يظهر كيد المنافقين ويعلمهم الناس ليميز الله الخبيث من الطيب وليمحص الله المومنين ويمحق الكافرين وهذا بعض الخيرية المشار اليها أول الآية فمن الخير ان يكشف الله امر هذه العصابة لنتقي شرها ولا نستمع الى كيدهم وافترائهم ولم يكن النبىء فى هذه المدة يشك أن الله يتركه فى هذه الحيرة دون ان يبين له جلية الامر وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها تقول: انى مطمئنة ان الله سيبرئنى ولكن لم أكن أظن أن قيمتى عند الله تبلغ ان ينزل فى قرآنا يتلى فالخيرية هى اظهار المومنين الصادقين وتمييزهم منالمنافقين الكاذبين وتربية الله للمومنين كيف يكون موقفهم من هذه التهم والارجافات ـ لولا اذ سمعتموه ظن المومنونوالمومنات

بأنفسهم خيرا ـ فينبغى ان يكون ضمير المومن طيبا وظنه باخيه حسنا بهذا تتكون الجماعة المسلمة وتلتحم على النقاء والطهر والوئام لانها اعدت لمسؤولية ضخمة وأمانة عظمى لا يتاتى لها القيام بها الا اذا هذبت ونقيت نفوسها والتحمت على الحب والاحترام المتبادل. ان هذه الخيرية لا يمكن حصرها ولا عدها بواحد واثنين ولكن هذا يوجد فى مطاوى تفسير الآية واستجلاء الحكم والعبر منها فهى اوسع من ان يأتى عليها حصر ـ لولا اذ سمعتموه ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيرا ـ يجب أن يكون للمومن ضمير يستفتيه عند سماع الشبه والتهم ويجب ان يكون ضمير المومن طاهرا نقيا ولا ينتظر فى كل شبهة وحيا لانه سيمضى زمان الوحى ويبقى رصيد الايمان فى قلب المومن يرجع اليه عند انتشار الشبهات وذيوع الاراجيف. وقد يعترض بعض البلداء فيقولون : ترى لماذا امرنا ان نسارع الى نفى الخبر ونبادر الى التكذيب فنقول : هذا افك مبين، هذا بهتان عظيم، أليس الاولى أن يأمرنا بالتحقيق والتثبت وسنجيب على هذا الاعتراض أولا : قال الله تعالى ـ ظن المومنون والمومنات بأنفسهم خيرا ـ فالظن الحسن والضمير النقى وسلامة الصدر مقدمة على كل خبر ينال من عرض المسلم والمسلمة لاسيما بيت النبىء الذى هو اطهر بيت فى الارض ويليه بيت أبى بكر الصديق الذى نشأت فيه عائشة البريئة الطاهرة والموقف دقيق فيه تهذيب وتربية الهية عالية والتعبير بانفسهم فيه نكتة عجيبة وذلك ان نفس اخيك هى نفسك ونفسك نفسه فالذى يؤذيه يؤذيك والمفروض ان تكون نفوس المومنين والمومنات على مستوى رفيع من النقاء والطهر والعفاف بحيث لا تحوم حولها الريب ولا تقترب منها الشبه فلا يستقر فيها الا الخير والظن الحسن لا سيما وجماعة المهاجرين والانصار اول جماعة طهرها الله ونقاها واسسها على التقوى من اول يوم فهم خير امة اخرجت للناس وهم صفوة هذه الامة وزبدتها فكيف يمكن لمنافق او شيطان ان يخلص الى

هذه الجماعة النقية ويبث فيها وسواسه فى اطهر بيت وفى عائشة المحصنة المومنة الغافلة عن الفحشاء وكيف تفكر فى هذا وهى النقية العفيفة وعندها رسول الله (ص) الذى جمله الله وكمله ثم كيف يتهم صفوان بن المعطل السلمى الانصارى المومن الذى ادار ظهره عند ركوبها وقاد المطية ولم يسقها ولم يكلمها ولا حتى كلمة لفرط حيائه وعفافه واحترامه لزوج النبىء (ص) الا يظهر بعد هذا ان الامر بهتان عظيم وافك مبين. ولنأخذ للتفكير السليم والضمير النقى محاورة ابى ايوب الانصارى لزوجته رضى الله عنها فهى احسن مثل لما يجب ان ينطوى عليه ضميرالمسلم نحوأخيه قال أبوأيوب لزوجته أتسمعين ما يقول الناس؟ قالتسمعتووالله انه لكذبوقالتله لو كنت مكان صفوان أكان يخطر ببالك شيىء؟ قال لا والله، ثم قالتو لو كنت مكان عائشة اتحدثنى نفسى ان أخون النبىء (ص) لا واللـه ثم قالت صفوان خير منك وعائشة خير منى. هذا هو التفكير الرائع السليم وصفوان هذا من السابقين الى الاسلام ومن الذين شهدوا بدرا وقال عن نفسه: والله ما كشفت عن أنثى قط فى الجاهلية فكيف وقد أكرمنى الله بالاسلام! هذا هو المقياس الذى أرادنا الله تبارك وتعالى أن نرجع اليه اذا سمنعا مثل هذه الاخبار وهذا هو الحكم الذى ترتاح اليه النفوس المومنة التى لا تفتأ أن تقول هذا افك مبين، سبحانك هذا بهتان عظيم. فالمومن بنور الله يبصر وويل لمن عميت بصيرته بعد هذا النور المبين.

ثم نكتة أخرى وهى أنه لو كان فى الامر شبهة فهل يبلغ صفوان من الوقاحة أن يأتى بالظعينة فى وضح النهار يقودها وسط المئات من الناس! هذا ما لا يقول به عاقل. ثم ان الزنا للحرة كانعندهم حينئذ عار وأىعار، فهذه هند بنت عتبة لما كانت تبايع رسول الله (ص) مع النساء فلما بلغت عند قوله ولا يزنين قالت او تزنى الحرة يا رسول الله! وكانوا

يتكرمون فى جاهليتهم عن التعرض لامرأة الجار ويتمدحون بهذه المكرمة يقول شاعرهم :

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

كانوا يتنزهون حتى عن النظر الى نساء الجار تكرما. فكيف يتهم مثل صفوان المومن المسلم مع عائشة النقية الطاهرة: فلا مجال لسوء الظن مطلقا ولانملك الا أن نقول عند سماع الخبر: سبحانك هذا بهتان عظيم وهذا ما نقرره من النزاهة يزيده جو الحادثة وضوحا فالمقام مقام رحمة وعطف حيث تجد امرأة ضعيفة تائهة تخلفت عن ركبها فهى عرضة للهلاك فكيف تفكر حينئذ فى التعرض لها، لايخطر ببالك لاسيما وهى امرأة نبيئك رسول رب العالمين، هذا ما لايخطر ببال عاقل، انما هى مطاعن المنافقين: ـ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ـ ان الله يعظنا ويحذرنا أن نفتتن باقوال المرجفين فما يكون لنا معشر المسلمين أن نتكلم بكلام أهل الكذب والزور والذين يقولون بغير علم ولاهدى فالأساس الذى نبنى عليه ظننا هو النقاء والطهر فى أعراض المسلمين وكل تهمة فهى باطل ينفى ولايقبل ولا ينبغى أن نتكلم بها وليس الاساس هو التهمة فنطلب التحقيق فلنفهم هذا المعنى جيدا وليس خاصا بعائشة وحدها بل هو قانون عام نعامل به الطيبات والطيبين المبرئين ـ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ـ يقول الله تعالى: لولا أن الله أراد بكم خيرا ليهذبكم وليمحصكم ويعلمكم بما ينزل فى الحادثة من أحكام لولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم عذاب عظيم عقوبة لكم على ما أفضتم فيه وخضتم فى باطله من القول الزور ـ اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس

لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ـ كان هذا الكلام يجرى على الالسنة من غير أن يستقر فى القلوب ويقال بالافواه من غير علم ولم يكونوا يعتقدون ما يقولونه حقا الا كلاما لا أصل له من الصحة فلم يحققه من المومنين أحد الا الثلاثة الذين أقيم عليهم الحد وتابوا ولكن الله وبخهم على الخوض فى أمر باطل ونهاهم أن يعودوا مرة أخرى لمثل هذه الاشاعات التى تعكر على المجتمع النقى وتوذى البريئات منهم والبريئين. لم ينزل الله العذاب عليهم لطفا بهم ورحمة ولان أحكام الله لم يتم نزولها بعد فكان بعض العذر قائما يقتضى اللطف والتخفيف فينقلب العذاب عتابا وتخويفا ـ يعظكم اللهأن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مومنين ـ اياكم أن تسقطوا مرة أخرى فى هذه الورطة فلا تعودوا لمثلها أبدا ما دامت السماوات والارض وما دام القرآن يتلى على المومنين فى كل زمان ومكان. يجب على المومنين أن يثق بعضهم فى بعض، فمن قال غير ذلك وأساء ظنه فى المحصنات فهو الملعون المنافق. وقد يقول قائل: ولم أمسك النبىء (ص) عن الحكم ولم يبادر الى التكذيب من أول يوم وهو يعلم عفة زوجته وكذلك أبو بكر رضى الله عنه وهو الذى ربى بناته على العفاف! الجواب معروف وهو أنه ما ذا عساه يقول الزوج وما ذا عساه يقول الاب وهما أقرب الناس وأمس رحما بالمتهمة فلا ينفع دفاعهم عن المتهمة وسوف يلج المنافقون فى طعنهم ويقولون فى الزوج انه يدافع عن زوجته لانها زوجته وفى الاب أنها ابنته وربما تروج هذه المقالة مرة أخرى على ضعفاء المومنين فكان العلاج الناجع غير هذا وكانت الحكمة أن ينتظر أمر الله والله يدافع عن الذين آمنوا وهذا هو المعنى الذى شعر به النبىء (ص) يوم قال لعائشة: ـان كنت بريئة فسيبرئك الله ـ وما كان النبىء ليقطع أمرا فى مثل هذا الموقف الدقيق الا بوحى من الله فكان

ينتظر الوحى يوما بعد يوم حتى أشرق كفلق الصبح يزيل ظلمات الشكوك والشبهات وهو النور وأى نور! ثم انه ما من بلاء الا ويقترن به لطف من الله بالمومن المبتلى فلم تسمع المتهمة بهذه التهمة العظيمة الا فى أيامها الاخيرة قبيل انجلائها ووقعت التهمة فى أعلى بيت من المسلمين لطفا بهم لانها حينئذ تضعف ويبعد احتمال وقوعها وأين تبلغ خشاخش الارض من دؤابة وما عساه ينال من القمر من راح يوجه اليه الشتم والبصاق وكذلك ليرفع الله درجات من يشاء ويكون لنا فى ذلك تشريع وأحكام وحكم كثيرة ولنستمع الى بقيتها فيما يلى:

ـ ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم يايها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يامر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد ابدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يوتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ـ هذا حكم قاس ووعيد شديد يقرره الله تعالى فى هذه الآيات على الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين «امنوا» والفاحشة مأخوذة من كلمة فحش أى ما اتسع خطره وعظم ضرره وتأتى فى القرآن مقترنة بالكبائر ـ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ـ ومرة تقترن بالمنكر ـ أقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ هؤلاء المنافقون الذين ينشرون هذه التهم والاراجيف فضحهم الله تعالى انهم انما يريدون بذلك الطعن على نبىء المسلمين والنيل من كرامة صديقه الاول والطعن على مجتمع المسلمين الطاهر وليس قصدهم الغيرة على الدين فما ابعدهم على الدين ثم ان هؤلاء موجودون فى كل

زمان ولهم مظاهر كثيرة لاشاعة الفاحشة فالذين ينشرون الصور العارية في الصحف والمجلات وغيرها والذين يدعون الى فتح دور البغاء السرى والعلنى والذين يربطون بين الرجال والنساء الفواسق والذين يفتحون ديار الرقص والغناء ويغشونها وانوع التمثيل والسنماء يعرضون الصور العارية عنوان الفن كل هؤلاء وامثالهم تتناولهم هذه الآية بالوعيد لانهم بذلك يلوثون المجتمع الاسلامى النظيف ويدنسون صفوه بما يثيرون من الغرائز ويجرئون الشياطين والشيطانات بعملهم هذا وحتى القلوب التى فيها الطهر قد تفسدها فمن تدبر الآية وخاصة قوله تعالى ـ والله يعلم وانتم لا تعلمون ـ تفتح له باب واسع من العلم فى الموضوع لان الذى خلق النفوس وركب فيها الطبائع والغرائز هو اعلم بما خلق اما نحن فكثير من الاشياء نحسبها هينة وهى عظيمة لها تأثير عجيب فى النفوس لا سيما نفوس الشباب فحذرنا الله تعالى منها ليبقى مجتمعنا طاهرا نظيفا وتوعد ذلك بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة، أما عذاب الآخرة فالخلود فى جهنم أعاذنا الله منها واما عذاب الدنيا فنوعان : نوع ينزله الله وقد يعم به اهل القرى اذا عمهم الفسق وشاعت بينهم الفواحش وذلك بأنواع الهلاك مثل الزلازل والخسف والعواصف وانواع الاوبئة الفتاكة وقد يذيق بعضهم بأس بعض فتنتشب بينهم الحروب التى تبيدهم والتاريخ مشحون بالعبر والنوع الثانى من العذاب مكلف به ائمة المسلمين ان ينزلوه بأهله كل على حسب دينه من انواع التأديب والتعزير والتنكيل كما هو مفصل فى كتب الفقه ويدخل فى عموم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر : ـ من رأى منكم منكر فليغيره بيده . الحديث ـ وقد اهلك الله امة كبيرة قال فيهم كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه فلنتق الله ولنحذر هذه الصور العارية والشعر الاباحى والادب المكشوف فان هؤلاء جميعا يدخلون فى وعيد الآية ولا ينجو من الوعيد حتى الذين يروجون هذه الاشياء يبيعونها

فى محلاتهم لانهم يتسببون فى اشاعة الفاحشة فتوبوا الى الله جميعا أيها المومنون لعلكم تفلحون.ـ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءو ف رحيم** ـ لم يذكر جواب الشرط فى هذه الآية، تركه لتقديرنا وذلك اروع وابلغ فى التاثير فـالله قادر ان ياخذ هؤلاء أخذ عزيـز مقتدر ومـا هم بمعجزيه ولكن الله يمهلهم ويعظهم ويحذرهـم ليتوبوا قبـل الأوان . ـ **يا ايها الذين ءامنوا لا تتبعوا خطوات الشيطـان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يامر بالفحشاء والمنكر** ـ يحذرنا ربنا تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان ويبين لنا ان اشاعة الفواحش واتيانها من وسواس الشيطان يناديكم فتجيبونه ويشير لكم فتتبعونه ومن يتبعه فانه ضال متبع للمنكر مرتكب له والشيطان يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ويقودهم اليها خطوة خطوة فاياكم ان تتبعوه فى خطوة من خطواته فان بعضها يجر الى بعض والشر يدعو الى الشر والمصير النار وبئس المصير ولا تطيعوه أبدا ولو فى محقرات الاعمال وسيتبرأ من حزبه يوم القيامة اذ يقول لهم : ـ ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنـا بمصرخـكم ومـا أنتـم بمصـرخى انى كـفرت بمـا اشركتمون من قبل ـ هنالك يتبرا بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضـا ومأواهم النار ومالهم من ناصرين، هكذا يمتن الله علينا بفضله ورحمته وتزكيته لمن يشاء من عباده فيقول جل من قائل : ـ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ـ لولا ان الله تعالى يزكيكم ويطهركم بما ينزل عليكم من الكتـاب والحكمة يعظكم به. ويزكى من يشاء يأخذ بأيديهم ويغلبهم على الشيطان وربما يخطىء أحد فى المشيئة وربما يغره الشيطان يقول له : أرسل نفسك على سجيتها تفعل ما تشاء ومتى أراد الله هدايتك فانه يهديك هذا تفرير

من اللعين ولا ينفع وقد بين الله ان هدايته انما هي لمن جاهد في عبادته ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ـ كلا ليس الامر كما يزعم اولياء الشيطان الذين قالوا : ـ لو شاء الله ما اشركنا نحن ولا آباؤنا ـ اعتمادا منهم على القدر وتواكلا من أنفسهم الخبيثة وهم أبعد الناس عن الايمان. فالمشيئة حق والقدر حق ولكنهم هم الكاذبون المفترون وقد كلفهم الله بالايمان والعمل ويسرلهم السبل الى ذلك ووعدهم العون والتيسير متى صدقت عزائمهم وسلكوا الطريق ـ فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ـ والذين اهتدوا زادتهم هدى وآتاهم تقواهم ـ ان الله تعالى جعل في قلب ابن آدم ملكا يلهمه وشيطانا يوسوسه وارسل اليه النذر تبين له طريق الخير ومكنه من الاختيار واذا علم الله من عبده صدق النية والعزيمة فانه يأخذ بيده ويهديه هداية ايصال ويحفظه من اتباع خطوات الشيطان، ولا بد بالمجاهدة والزكاة هنا في الآية الطهارة من أدناس الشك والمعاصي، تطهير النفس ـ قد افلح من زكاها ـ وتطهير القلب واذا طهر القلب طهرت الجوارح فلا ترتكب المخالفات. يريد الله ان يزكي انفسنا ويطهرها بما ارشد اليه من اسباب التزكية والتوبة بعد الوقوع، والله سميع عليم. يسمع ما تقولون ويعلم ما في ضمائركم فاحذروه ان يسمع منكم ما يكره او يعلم منكم ما لا يرضاه فتوبوا اليه فانه يسمع تضرعات التوابين ويعلم نوايا المخلصين ويقبلهم ويجزيهم على الصالحات خير جزاء . **ولا ياتل اولوا الفضل منكم والسعة ان يوتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ـ هذا ادب آخر يؤدبنا به ربنا تبارك وتعالى وذلك انه اذا تفضل على أحد منا بنعمة الرزق فليس من الشكر أن يحرم أقاربه الفقراء

من خيره لاجل خطا ارتكبه احدهم فى حقه فيغضب ويقسم ان يقطع عنه خيره، ولاياتل : لا يحلف والايلاء هو الحلف، وهذه الآية نزلت فى حق سيدنا ابى بكر الصديق رضى الله عنه وذلك أنه غضب على ابن خالته المهاجر الفقير مسطح بن اثاثة الكلبى رضى الله عنه كان ابو بكر ينفق عليه ويحسن اليه بحكم قرابته منه وما كان ينبغى لمسطح وهو يعرف مقام عائشة منه (ص) ومن أبى بكر وحصانتها وبيت ابى بكر وام رومان وحصانته، ما كان ينبغى لك يا مسطح أن تنخدع ما كان ينبغى لك يا مسطح ان تنحدر فتطلق لسانك فى الحصان الرزان المومنة المحصنة الغافلة ، لقد تكلمت ببهتان عظيم ولولافضل الله عليك ورحمته لمسك فيما افضت فيه عذاب عظيم ولكن مسطح تاب وندم وجلد الحد ثمانين جلدة، فما كان لابى بكر بعد هذا ان يستمر فى حرده عليه، يقول الله تبارك وتعالى ـ وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم ـ هذا تنظير له مقام وجلال وله ثائير فى القلوب غريب لا اريد منكم ياعبادى المومنين أن تكونوا ممن يكافىء الشر بالشر انما أريدكم أن تكونوا أبرارا تكافئون من أساء اليكم بالاحسان اليه أريد منكم أن تعفوا وتصفحوا كما تحبون أن أعاملكم تعصوننى وأعفو عنكم وأنعم عليكم تذنبون وأقبل التوبة منكم ولو أنى سددت باب التوبة والعفو فى وجوهكم ما نجا منكم أحد فكما أنكم تعصوننى وتحبون أن أغفر فليغفر بعضكم لبعض وليعفوا وليصفحوا ولا أرضى لاحد منكم أن يحلف على أن يقطع خيره عن أخيه وقريبه المهاجر الفقير. هكذا نزلت هذه الآية العظيمة فى حق العفو فما ان سمعها أبو بكر رضى الله عنه حتى سارع الى الامتثال فكفر عن يمينه ورجع الى احسانه أحسن رجوع وقال يارب انى أحب أن تغفر لى وحلف أن لا يقطع خيره عن مسطح أبدا ما دام حيا. هكذا كان امتثال أبى بكر الصديق وأمثاله من الصحابة الكرام لاوامر الله تبارك وتعالى فياترى لو

امتحن أحد منا بهذا الامتحان ما ذا يكون موقفه؟ يجب علينا أن نتذكر ونتعظ بآيات الله وبمواقف الصحابة الذين تلقوها بالقبول والمسارعة بالامتثال والا فمن منا يقول: أنا لا أحتاج الى عفو الله وصفحه، كلا فمن منا معصوم، ولنا حاجة شديدة الى عفو الله وصفحه ومغفرته للتائبين: وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى. فى هذه الآية الكريمة توجيه لنا وارشاد الى معاملة ذوى القربى من أهل الاسلام بعضهم لبعض وتحذير من القطيعة وتبيين أن اليمين فيها محرم ممقوت فيجب التكفير والرجوع الى الصلة كما ثبت عن النبىء (ص) أنه قال: اذا حلف أحدكم يمينا فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليأت الذى هو خير . قال بعض الفقهاء لا كفارة عليه وانما يرجع لعمل الخير فذلك كفارته تمسكا ببعض الروايات التى فيها زيادة ـ فذلك كفارة ـ ولكن يرد عليهم قوله فى الحديث ـ فليكفر عن يمينه ـ أما قوله فى بعض رواياتهم فذلك كفارة فرأينا فيه أن الحلف على القطيعة ذنب مضاعف فيه كفارتان: الكفارة الاولى كفارة اليمين والكفارة الثانية على استعمال اسم الله العظيم فى القطيعة. فهذا ذنب عظيم يحتاج الى التكفير فكان الرجوع الى الصلة كفارة له فهناك يمين وذنب عظيم فلا بد بكفارة اليمين ولابد بالتكفير على الذنب هذا هو الراجح عندنا فى المذهب ونرجو أن يكون صوابا والله أعلم وآيات الله فى كفارة الايمان محكمة: ـ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ـ هذا ما فتح الله لنا به فى تفسير هذه الآيات نرجو أن نعتبر بها ولانكون من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا ولا من الذين يشاركون فى اشاعتها ونرجو أن نكون من الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل بالعفو والصفح لا بالقساوة والقطيعة والحمد لله رب العالمين.

ـ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ـ

بعد كل ما تقدم من الآيات المحكمة فى قصة الافك وهى محكمة وعامة والعبرة كما يقول العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وحتى لا يظن ظان أن كل هذا التشديد والتعظيم انما هو فى حق عائشة أم المومنين زوج النبىء (ص(وبنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه حتى لا يظن ظان أن كل هذا فى حق عائشة فقط، اقتضت حكمة الله تعالى أن يصدر حكما آخر عاما فى الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات حتى يتيقن الناس بعمومه وشموله فى حق المومنات والمومنين الى يوم القيامة ولايتوهموا خصوصية فى حق عائشة وحدها فقال: ـ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ـ فالآية محكمة وعامة وعبر ربنا تبارك وتعالى بالرمى حتى يبين فظاعة الكلام فى أعراض المحصنات انه لايقل فظاعة عن الرمى بالصخور المحطمة والقاتلة غير أن الصخور المرمية تحطم الاجساد وكلمات الافك والبهتان تحطم الاعراض وتشيع الفاحشة فهى اذن أشد وأشد من الصخور. وكم يدرك قارىء الآية بامعان وتدبر ما فيها من تأثير وقوة، بدأها بالتأكيد بان ثم التعبير بالرمى ومافيه من الفظاعة ثم التوعد باللعنة وهو الطرد من رحمة الله ثم التخويف بالعذاب ووصفه بالعظيم وكونه فى الدنيا والآخرة ثم عرض مشهد يوم القيامة العظيم وما فيه من الخزى لهم حين يحاولون الانكار ويحلفون على الكذب لما رأوا العذاب العظيم ـ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون ـ والرمى هو التكلم بالبهتان فى

النساء العفيفات مثل عـائشة أم المومنين والرجال الاعفاء مثل صفوان بن المعطل الذى قال عن نفسه: ما كشفت كنف امرأة قط. ما أروع التعبير القرآنى! ـ المحصنات الغافلات المومنات ـ هو تبرئة لام المومنين عائشة ووصف لها بأعظم أوصاف العفاف وهو فى نفس الوقت ارشاد لما يجب أن تكون عليه كل مومنة: أن تكون محصنة عفيفة وغافلة لايخطر الفحشاء ببالها ولايجرى ذكرها فى خلدها لشدة كراهيتها لها وبعدها عنها وعن أهلها، فهذا وصف جميل وطيب لحالة المومنات المحصنات اللواتى ينشأن فى بيوت دين وعفاف وحصانة لايخطر ببالهن الشر ولا يعرفن الزنا والفواسق فهن عنه غافلات لاغفلة جهل وبلادة انما هى غفلة عفاف واعراض وفى هذا المقام الذى هو مقام الكلام عن الحصانة ناسب أن يقدم وصف الحصانة والغفلة على وصف الايمان وان كانت الحصانة ثمرة الايمان لكن البلاغة القرآنية لها اقاعات خاصة وموثرة، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ـ ولاننس كذلك أن الحصانة والعفاف هى أخلاق المرأة الحرة العربية قبل أن تعرف الايمان فكن يرين من العار الفاضح أن تزنى الحرة فلما جاء الاسلام أكد فيهن هذا الطبع النبيل فجعله دينا لاخلقا وعادة فقط لان الاخلاق والعادات كثيرا ما يطرأ عليها التغيير كما هو واقع فى عصرنا فى أكثر بلاد الدنيا ـ **ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المومنات لعنوا فى الدنيا والاخرة** ـ حكم الله عليهم باللعنة فى الدنيا والآخرة فكأنه قطع عنهم طريق التوبة والانابة لان رمى المحصنات طبعهم ودأبهم فالتعبير جاء بصيغة المضارع ـ يرمون ـ فهم متمادون على الكذب والبهتان واشاعة الفاحشة وليس الامر فلتة كما وقع لمسطح ثم تاب فاولئك الذين ليس من طبعهم هذا قريبون من التوبة ورحمة الله قريبة منهم، أما المصرون والمتمادون لاسيما اذاكانت اللاتى يرمونهن محصنات غافلات مومنات اجتمعت فيهن هذه الاوصاف الثلاثة

فياويلهم من وعيد الله الشديد فهم فى لعنة الله فى الدنيا والآخرة وهولاء قليلا ما يتوبون وقليلا ما يذكرون أنى لهم ذلك وفى نفوسهم طبع خيبث وهو حبهم أن تشيع الفاحشة فى الذين ءامنوا يعمدون الى المجتمعات المومنة الطاهرة البريئة فيلقون فيها جرثومة سوء فيلقون فيها كلمة الفاحشة فى أوساطها النقية فتكون كجرثومة الوباء ان لم تقاوم ويقض عليه ربما ينتشر وباؤها ولذلك سميت الفاحشة فاحشة وهى التى يتسع ضررها ويعم خطرها فهم يخلقون بكلامهم هذا جوا من الفاحشة ربما أثر على بعض القلوب المريضة واذا كان الله تبارك وتعالى ينزل هذه الآية فى خير القرون فيقول جل من قائل: ـ ولاتخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ـ يخاطب بذلك زوجات النبىء (ص) ونساء المومنين اذا كان هذا الخطاب فى ذلك القرن فكيف بقروننا هذه، ومرض القلوب هو ميلها الى الفاحشة وهذه سرعان ما تتأثر بمخاطبة النساء اذا كان فيها تغنج وأنوثة، أما القلوب الطاهرة البريئة فلا يؤثر فيها ذلك ولو طال الخطاب ورق الكلام ولان. وبما أن الناس فيهم الطيب السليم والدنىء المريض القلب فالمرأة المومنة مكلفة اذا دعتها حاجة الى مخاطبة الرجال أن تتكلم بكلام قوى ليس فيه تكسر وخضوع وهذا كله حرصا على سلامة المجتمعات الاسلامية من شيوع الفاحشة حتى تظل سليمة ونظيفة والبيئة متى كانت نقية فهى الضمان لسلامة الناشئين فيها والعائشين فى كنفها فلذين يطلقون التهم فى البيئات الاسلامية النظيفة يرتكبون أعظم الاجرام لانهم يخلقون نتنا كنتن الجيف يجرؤ كلاب السوء على التطواف وراء الفاحشة وماكانت هذه الكلاب لتطوف لولا وجود هذه الاشاعات فحرام علينا التكلم بهذا ولو على فرض وقوع شىء منها يجب على المومن المشفق على سلامة بيئته أن لا يتكلم به بل يسعى فى العلاج والقمع وعند الظهور يجب اقامة الحد حتى يكون ردعا للآخرين ثم بعد الحد لا يباح الكلام حتى

فى عرض المحدودين اذا أظهروا التوبة والندم وهذا كله حفاظا على اعراض المومنات والمومنين وعلى مجتمعاتهم أن لا يقع فيها ما يعكر صفوها ويخدش سلامتها وطهارتها بهذا النظام العجيب وبهذا الادب الذى أدبنا به ربنا تبارك وتعالى يبقى مجتمعنا طاهرا يعيش الرجل فيه دهرا طويلا ولا يحدث نفسه بشىء وتعيش المرأة طول عمرها ولا يمر بخاطرها أن تخون زوجها أبدا، هذا ما نعتقده فى أمهاتنا وزوجاتنا وبناتنا وهؤلاء هن المحصنات الغافلات المومنات اللاتى يتوعد الله الذين يرمونهن بالعذاب العظيم ويقول فى شأنهم: ـ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ـ يقول القائل: هذه الالسنة تشهد على الكلام فما بال الايدى والارجل، ذلك أن من ابتلى بهذا الداء تراه ينتقل من مكان الى مكان ينشر خبر الفاحشة ويشير بيديه وعينيه فهو يستعمل هذه الجوارح فى اشاعة الفاحشة لذا فهى تشهد عليه يوم القيامة فما أبلغ التعبير القرآنى وهؤلاء لا يقر لهم قرار حين يسمعون خبرا من النوع فهم لا يزالون فى اضطراب وتنقل حتى يذيعوا الخبر وقد يتظاهرون بالغيرة ولا تكون أعمالهم فى الغالب الا قبيحة ـ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين**ـ يومئذ : اليوم الذى يقومون فيه لرب العالمين يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ويوفيهم الله دينهم الحق، الدين هنا بمعنى الجزاء، يوفيهم الله ما يستحقون من الجزاء ولا يخفف عنهم ولاينقص منه شىء هذا الوعيد الشديد فى حق هؤلاء يدل على عظم حرمة أعراض المومنين والمومنات وعلى محبة الله لاوليائه فهو شديد الانتقام ممن يتعرض لاعراضهم، وكرامة المرأة المومنة أعظم وتأثير البهتان عليها أعظم بكثير من الرجال فالويل لمن مسها بسوء وويل له من عذاب أليم وكذلك الرجل المومن حرام عرضه ودمه وماله والعرض والشرف أعظم حرمة من المال ولذلك شدد الله فى الوعيد وذكر

فيه انواعا من العذاب ولا يزال الكلام في معرض الوعيد فيقول: ـ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ـ نبهنا الله تبارك وتعالى الى سنة من سننه في هذا الكون في المجتمع الانساني وهي السنة التي دل عليها واقع قانون الله تعالى في بني ءادم: الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والكلام دائما مداره على المرأة وهي القارورة التي عرضها وشرفها أدق من عرض الرجل، يبدأ الكلام بها ثم يثني بالرجل وينبهنا أن الناس طبقات شتى وبين هذه الطبقات تجاذب فالمفسدات يملن الى أجناس من المفسدين والمفسدون يقعون على أجناسهم من المفسدات والطيبات لا يملن الا الى الطيبين والطيبون لا يرضون الا بالطيبات وفي هذا اشارة الى قضية الافك فكأنه يقول: أتظنون أن رسول الله (ص) النقي الطاهر النسب الذي ليس فيه شبهة سفاح أتظنون أنه يتصل بامرأة غير طيبة وكذلك أبوبكر الصديق النقي النسب أتظنون أن تخرج من بيته الشريف لوثة في عرض أو شرف! كلا انها عناصر طيبة نقية بعضها لبعض كفاء وهل يرضى الله لنبيئه الا الطيبات العفيفات عائشة البريئة ما عرفت غير الطهر والعفاف منذ نشأتها وهي التي خطبها النبيء (ص) وهي بنت ست سنوات وعقد عليها وهي بنت سبع ودخل عليها وهي بنت تسع فكيف يمكن لهذه البنت التي ملأ الله قلبها وسمعها وبصرها بنبيئه الذي كمل خلقه وخلقه كيف يمكن لمثل هذه أن يخطر ببالها سوء أو ميل الى أحد غير زوجها الذي عقدت عليه شغاف قلبها منذ صباها فالارواح الطيبة بينها تجاذب في المعاشرة والمصاهرة والخبيثة كذلك يسوق الله بعضها الى بعض ففي هذه الاية تنبيه لعقولنا فكأن الله يقول لنا: كان ينبغي أن توازنوا بين عناصر الناس ولاتنخدعو بمقالة المنافقين أمثال عبد الله بن أبي وأصحابه فهل يستقيم في العقل أن

تروج مقالة السوء فى أهل بيت رسول الله (ص) وفى صفوان وهو من يعرف الناس حصانته وطهارته منذ الجاهلية كان ينبغى لكم ياأهل العقول السليمة أن تدركوا خطر هذه الكذبة على مجتمع طاهر ونظيف وفظاعة هذا البهتان العظيم فمـا أبعد الفاحشة عن الطيبات والطيبين! أولئك مبرءون مما يقول المنافقون الذين يظنون بالمومنين ما بأنفسهم من فسق وما فى قلوبهم من مرض ويروى بعض أصحاب الحديث عن حذيفة ابن اليمان أن النبىء (ص) قال: قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة. فليتق الله الذين يرتعون فى أعراض أولياء الله الذين برأ الله ساحتهم وطهرهم. وسيعلمون جزاءهم فى اليوم الذى يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين، ان الله هو الحق ويقول الحق ويحكم بالحق، أما هؤلاء الذين يتجرءون على الله فى أوليائه فلو كانوا يومنون بالله الحق وجزائه الحق لأقصروا عن غيهم ولوقفوا عند حدود الله لا يتعدونها ثم ان الله تبارك وتعالى وعد هؤلاء الطيبين المبرئين بقوله: لهم مغفرة ورزق كريم وذلك جزاء ما مسهم من الابتلاء وربما بدرت منهم بعض البوادر فيكون هذا البلاء مغفرة لذنوبهم ورفعا لدرجاتهم عند الله فى جنات تجرى عليهم فيها رزق كريم، وهذا مقابل العذاب الاليم الذى اعده الله للذين يرمون بالبهتان فى دار الدنيا ففى جزاء هؤلاء وهؤلاء ذكرى للذاكرين وعبرة للمعتبرين والحمد لله رب العالمين .

ـ يأيها الذين ءامنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحـدا فلا تدخلوها حتى يوذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ـ بعد أن بين الله تبارك وتعالى عقوبة مرتكبى فاحشة الزنا فى الدنيا والآخرة وبين عقوبة القاذفين يعمد

الى الطريق التى تؤدى الى الفاحشة فيسدها وينهانا عن الاقتراب منها ويهذبنا ويؤدبنا بأدبه العالى فينهانا عن الاقتراب من ساحتها فلا يكتفى بالنهى عن الزنا فحسب، بل ينهانا عن القرب فيقول: ـ ولا تقربوا الزنى وكل كلمة فى القرآن لها نورها وكل حرف له وقعه وربما نغفل عن هذه الاسرار وعند التدبر والتأمل ندركها وبالمثال يتضح الحال فكثيرا ما نحذر أولادنا عن الاشياء المخوفة فنقول لا تقربوا النار لانا نعلم أنهم عند الاقتراب منها تلهب ثيابهم ولا يشعرون. يؤدبنا الله تعالى فى مجتمعاتنا السكنية بآداب هى الحضارة وهى التعايش السلمى آدابا تبعدنا عن الخيانة والفسوق والاذى فينهانا أن ندخل بيوتا غير بيوتنا حتى نستأنس ونسلم على أهلها والاستئناس هو ادخال الانس على أهل البيت واشعارهم بالاقتراب والرغبة فى الدخول. من حق كل انسان رجلا أو امرأة أن يكون لهم مسكن يختص به ولايرضى أبدا أن يدخله أحد الا باذنه وهذا من حقوق الانسان التى جاء الاسلام لاثباتها وتكوين مجتمع هو المدينة الفاضلة التى طالما حلم بها الفلاسفة الاقدمون. من حق كل انسان رجلا أو امرأة أن يكون له محل يختص به يخلو فيه بنفسه أو مع أهله وحتى الحيوانات تتخذ لها أوكارا تسكن فيها والطيور لها أعشاشها ولاحق لاحد أن يقتحم على أحد وكره الا باذنه لا أمير ولا وزير وهذا حق مقرر فى جميع قوانين الدول وسبق اليه الاسلام فنرى القرآن يخاطبنا بخطاب طويل فى حرمة المنازل ومشروعية الاستئذان لغير أهل البيت وحتى لاهل البيت بعضهم على بعض فى أوقات خاصة يبينها القرآن بيانا واضحا ويقرن الاستئذان بالسلام على أهلها ليزيد فى أنسهم ويدخل الطمأنينة والامن على نفوسهم والسنة أن تبدأ بالتسليم ثم تستأذن فى الدخول تقول: السلام عليكم أأدخل؟ ولابد بالسلام فقد روى أن النبىء (ص) أمر أحدا بالرجوع لانه لم يسلم ولا يكفى أبدا أن توضع كلمة عوضا

عن السلام لان القرآن عبر بالسلام والسنة علمتنا السلام- **ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون** - أى تسليمكم خير لكم وأحسن عاقبة وأطيب أثرا فى نفوسكم ومجتمعاتكم لعلكم تذكرون أى تفقهون حكمة البارى فى تشريعه لكم ما يفيدكم ويوثق الصلات بينكم وهذا الحكم عام حتى بين الاقارب وبين الاولاد وآبائهم وأمهاتهم، روى أن أحد الصحابة رضى الله عنهم سأل النبىء (ص) قال: ان لى أما تسكن وحدها فى بيت ولا خادم لها غيرى أفأدخل عليها بغير اذن؟ فقال له النبىء (ص) استأذن عليها فقال له الرجل ليس معها فى الدار أحد فقال له النبىء (ص) أتحب أن تراها عريانة؟ قال لا قال له استأذن. هذا أدب النبىء (ص) وكذلك سأله ابن عباس رضى الله عنهما قال: أخواتى أدخل عليهن بغير اذن قال له استأذن والبيوت لها حرمة ولو لم يكن فيها أصحابها لانها ربما تكون على حالة لا يرضون أن يطلع عليها الناس وكلنا يشعر بذلك اذا استأذن علينا أحد فى بيوتنا نستصلح أولا من شؤوننا قبل أن نأذن له وقد يكون لرب البيت محل يخلو فيه بنفسه لايرضى أن يدخل عليه فيه أحد من أهل بيته الا باذن واختار لنا كلمة السلام لانه اسم من أسمائه فيه معنى السلامة والامن والعافية ومن سلم على أهل بيت فقد أمنهم من شره، والاستئذان ثلاث مرات قال النبىء (ص) الاستئذان ثلاث: الاول يستنصتون والثانى يستصلحون والثالث يأذنون أو يردون انظروا الى هذا الادب النبوى العالى ثم ان بعض الناس عندما يسألهم أهل البيت من؟ يجيبون: أنا ومن أنا هذا وفى هذا يروى جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال استأذنت على النبىء (ص) فقال من؟ فقلت أنا فسمعت النبىء صلى الله عليه وسلم يقول: أنا - أنا - أنا يكررها ويستنكرها: من أنا؟ وكل الناس يقول: أنا فهذه الكلمة لا تعرفك أيها المستأذن. أما سيدنا عمر رضى الله عنه فكان اذا استأذن على النبىء (ص) يسلم ويقول أيدخل عمر فيسمى نفسه

باسمه، هذا أدب الصحابة مع النبىء (ص) فلم لا نتأدب به. وروى أن النبىء (ص) زار مرة سعد بن عبادة فقال كعادته: السلام عليكم أأدخل فرد عليه سعد ردا خفيفا لا يسمعه النبى (ص) فكرر عليه السلام ثلاث مرات ثم رجع فلحق به سعد رضى الله عنه فقال يارسول الله كنت أسمعك وأرد عليك السلام ردا خفيفا ولكن أريد البركة أن تكرر علينا السلام مرات وكانوا شديدى الرغبة فى بركة النبىء (ص) يستكثرون منها كلما سنحت لهم الفرصة. والاستئذان كما صحت به الرواية ثلاث مرات فان لم يأذنوا لك فانصرف وان قيل لك ارجع فارجع هو أزكى لك كما عبر به الادب القرآنى العالى من غير أن تتأثر أو تغضب لان أهل الدار ربما يكونون فى شغل لا يسمح لهم بالاذن لاحد ومن من الناس يقول أنا مستعد أن آذن للناس فى كل حين وان أكثروا. قلل العلماء : لا يسوغ لك أن تزيد على ثلاث مرات أو تبقى بباب دارهم حتى يأذنوا لك وانما أبدل وقتا بآخر ولو شعرت أن صاحب البيت فيه ولا يرغب فى الاذن فاذهب ولاتلح فى الاذن أو تلج فى البقاء فان الامور لا تعالج باللجاج انما تدرك الحاجات بالرفق والادب والله يقول: ـ **هو أزكى لكم** ـ أى أطهر لقلوبكم وقلوب أهل البيت وأبقى للعلاقات الطيبة بينكم وكل تصرف يخالف هذا الادب الزكى تصرف أخرق يفسد القلوب ويوهن العلاقات أما الترتيب الوارد فى السنة وهو البدأ بالسلام فهذا ربما يتعذر فى ديارنا لان بيوتنا فى مداخلها منعرجات وفيها طبقات فربما وغالبا ما يكون أهل البيت بحيث لا يسمعون من يسلم خارج البيت أو يظنون يقصد جارا من الجيران القريبة ولذلك ناسب أن نبدأ بالطرق للابواب والنداء حتى اذا استأذنا بما يسمع أهل البيت سلمنا ودخلنا ولعل فى التعبير القرآنى ما يساعدنا على ما تدعونا اليه ضرورة أوضاعنا وفى الدين يسر والحمد لله واما ما يفعله بعض الناس من ابدال تحية السلام الطيبة

المباركة ببعض الفاظ أخرى مثل صباح الخير ومساء الخير فهذا لا نقرهم ولا نرضى بالسلام بديلا وهو التحية التى اختارها لنا معاشر المسلمين فيما بيننا فى الدنيا واختارها لملائكته وتحية اهل الجنة فيما بينهم وتحية الله لهم : ـ سلام قولا من رب رحيم ـ تحيتهم فيها سلام. انها من بقايا الجاهلية ان يستبدل احدهم بها تحية اخرى بدلا منها فيجب على المسلمين ان يفشوا السلام بينهم ويعلموه ابناءهم منذ الصغر كما يعلمونهم الاستئذان حتى ينشأوا على أدب الاسلام العالى. وايضا كما حرم الدخول بغير اذن كذلك النظر وانما جعل الاستئذان من اجل النظر كما ورد فى الحديث ولا يرضى احد ان يشرف عليه احد او يطل عليه من كوة او شق جدار او من خصاص الباب وهو فى بيته وان رماه بشىء فاعطبه فلا ارش عليه لان هذا من اقبح انواع الظلم يقاوم بما امكن كما روى انس بن مالك ان النبىء (ص) عمد بمشقص كان فى يده اهوى به ليفقأ عين أحد أطل عليه من خصاص الباب وكان يأمر الذين ياتونه ان يقفوا عن يمين الباب او شماله ولا يقفوا تجاه الباب وهذا من الادب النبوى الكريم. ان من اكبر الكبائر الاطلاع على بيوت الناس من حيث لا يشعرون او يشعرون والاستماع الى اسرارهم وشؤنهم كالنظر فهؤلاء ظلمة لا يبرؤهم الا ان يتوبوا ويتحللوا من الذين ظلموهم انه ظلم وان من استمع او اطلع كانما دخل وهذا التشديد فى حرمة البيوت فيه ما فيه من حفظ الاعراض لان النظر بريد الزنى ورب نظرة زرعت شهوة. وبعد فهذه الآداب العالية التى شرعها الله لنا تاديبا لمجتمعنا الاسلامى حفاظا على سلامته ونقائه وذلك يتجلى فى اتباع سنة نبيئه (ص) وهديه الاغر نسأل الله تبارك وتعالى ان يوفقنا لما يحبه ويرضاه والحمد الله رب العالمين. ـ **ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ـ بعد ان بين الله تبارك وتعالى حرمة البيوت وحرمة ساكنيها وأدبنا بذلك

الادب العالى فى الاستئناس والتسليم بين لنـا فى هذه الآية رحمة بنـا وتيسيرا بعض الحالات الخـاصة التى ندخل فيهـا بعض البيوت بغير استئذان وهى البيوت الغير المسكونة فما هى هذه البيوت التى ليس فيها سكان وفيها متاع لنا ويجوز دخولنا بغير اذن وما هو هذا المتاع؟ هذا شىء معروف وموجود فى كل زمان ومكان وقد ذكر المفسرون لذلك امثلة كثيرة منها دكاكين التجارة والصناعة والحمامات وخانات النزول للمسافرين ويعبر عنها اليوم بالفنادق وتكون فى المدن والقرى وفى منازل الطـرق والاسفار يدخلها المسافرون ويستريحون فيها لقضاء حاجاتهم والوضوء والصلاة والاكل والشرب والمقيل والمبيت. هذا هو المتاع وهذه البيوت عرفها الناس من قديم وفى عصرنا هذا وهذا المتاع ليس هو الاثاث والاناء بل هو المنفعة والاستظلال والراحة ونحوها، هذه البيوت يدخلها الناس بغير استئذان وقد اعتادوا ذلك منذ القديم. روى ان ابا بكر رضى الله عنه سأل رسول الله (ص) لما نزل قوله تعالى : ـ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ـ الآية ، قال يا رسول الله ارأيت بيوت التجار ومنازل الطرقات للمسافرين؟ فنزل قوله تعالى ـ ليس عليكم جناح الآية ـ ومن هذا القبيل فى عصرنا هذا قصور الحكومات وديار البلديات ومصالح الادارات وديار القضاء والنيابات فهذه ونحوها هى البيوت التى فيها متاع لنا ندخلها بغير اذن وقد تقتضى بعض الضرورات ان تتخذ الدول لديارها حجابا وحراسا ينظمون دخول الناس فيها وهذا امر تدعو اليه بعض الظروف ـ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ـ كثيرا ما يعقب الله تبارك وتعالى آيات الاحكام والتشريع بايات مثل هذه تذكرنا باحاطة علمه جل وعلا بسرنا وعلانيتنا حتى يغرس فى قلوبنا طبيعة الايمان بالله ومراقبته فيما ناتى وندر وقانون التشريع فى كتاب الله بدع من القوانين يعقب التقنين بالتخويف من اطلاع الله على ما تكتم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون. فاذا تمكنت فى

ضمائرنا مراقبة الله فذلك ضمان لنا على احترام قوانين التشريع القرآني وآدابه الحكيمة ويملأ قلوبنا ثقة بحكمة تشريع ربنا الذي يعلم ما نبدي ونكتم من أمورنا ولا يشرع علام الغيوب وخبايا القلوب الا ما يصلح بعاجلنا وآجلنا والحمد لله رب العالمين.

ـ قل للمومنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون. ـ قل للمومنين اى مرهم وذكرهم ونبههم ان يغضوا ابصارهم فلا يمدونها الى ما لا يجوز ولا ينظرون بها نظر شهوة وان يحفظوا فروجهم بسترها وتحصينها ذلك ازكى لهم وأطهر وانقى لقلوبهم ومجتمعاتهم، علم الله ان الابصار هى التى تكون السبب الى التطلع لما وراء الحجب من العورات والشهوات فسد طريق النظر الموصل الى الفاحشة الكبرى حتى لا نقترب منها فأمرنا ان نغض من هذه الابصار. قال المحققون من أهل التفسير : أمرنا ان نغض من أبصارنا لا الابصار كلها حتى لا نمشى كالعميان فى الطرقات لا نقفل عيوننا بل نغض منها فلا ننظر نظرة الفضول وانما هى نعمة من الله تعالى لننظر بها منافعنا ومصالحنا وننظر بها الى آيات الله فى الارض والسموات. غض من بصرك أيها المومن انظر الى ما ينفعك وغضها عما يضرك انظر نظرة عبرة وانتفاع واستفادة بمباح وقد تكلم العلماء والحكماء فى القديم والحديث عن النظر وما يجره من ضرر للانسان حتى قالوا كل ما يتعرض له الانسان انما هو بسبب فضول النظر وفضول الطعام وفضول الكلام وفضول اللباس. رب نظرة أورثت حسرة بل حسرات. قال النبىء (ص) النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركها مخافة الله تعالى أورثه الله ايمانا يجد حلاوته فى قلبه. النظر سبب الافتتان ولا أدل على هذا من الواقع وأعظم أنواع الفساد الواقع اليوم فى بلاد الدنيا انما سببه النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات يكشفن عن زينتهن ويتعرين ويتبرجن ليدخلن الى قلوب الرجال من كل

طريق وأوسع هذه الطرق النظر وهو بداية الخطر يقول الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

علم الله طبائع بنى آدم فبدأ فى تأديبهم بالامر بغض النظر وذلك سدا لباب الفتنة فاذا نجح أحد فى غض البصر فقد سد باب الفتنة عن نفسه وروى عن النبىء (ص) قال يخاطب الامام عليا : لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك، والاولى هى التى تأتيك فجأة من غير قصد والثانية هى التى تتعمدها ولو بالاستمرار والتمادى على النظر الاول وفى خطر النظر يقول الشاعر الحكيم :

كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس و لا تر

وسر ناظره ما ضر خاطره لا مرحبا بسرور عاد بالخطر

فرحت أيها الناظر عندما نظرت الى صورة جميلة سر بها خاطرك ولكنها أشعلت فى قلبك نارا فلا مرحبا بسرور يجلب لك الخطر فأنت بين نارين اما أن تتبع ما رأيت فتضر دينك واما أن تكبت عواطفك فيطول تفكيرك وغمك كأنك تتقلب على الجمر وما كان أغناك عن هذا لو غضضت بصرك والمثل العامى يقول: عين لا شافت قلب لا وجع. وشياطين الجن والانس يجرون الناس الى النظر ويهونون لهم من خطره وهم يعلمون أنه عظيم وأنه لاسلامة لهم بعد النظر، كثير من الناس ذهبوا الى أماكن المعصية لمجرد النظر فوقعوا فى شراك البلاء فهم معذبون وقد كانوا يظنون أنهم يسلمون فمن أراد الله به خيرا يقويه على غض البصر. هذا ما أمكننا شرحه من هذا الادب العالى الذى أدبنا به ربنا تبارك وتعالى ثم زاد فقال عز وجل : ـ **ويحفظوا فروجهم** ـ وحفظ الفرج انما يكون بسترها وحفظها عن استعمالها فى الحرام ومنعها من ارتكاب الفاحشة حرم الله كشف العورات والنظر اليها والنبىء (ص) أمر بالتستر حتى فى الخلوة ونهى عن التعرى الا للاغتسال، روى عنه أنه قال: تستتروا

فلن معكم من لايفارقكم الا عند الغائط أو عند ما يفضى أحدكم الى أهله. والمراد الحفظة الكرام من الملائكة وفى حديث آخر: لا يكشف أحدكم عورته الا لزوجته أو ما ملكت يمينه، فقال له أحد الصحابة: واذا كان أحدنا خاليا فقال النبىء (ص): ان الله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه. وقال الله تعالى ـ **ذلك أزكى لهم** ـ أى أطهر وأنقى لنفوسهم وقلوبهم ـ **ان الله خبير بما يصنعون** ـ وهذا تعقيب آخر من تعقيبات الله الحكيمة يذيل الله بها أوامره ونواهيه وتشريعاته حتى يذكرنا باطلاع الله على أعمالنا وخبرته المحيطة بما يصنع عباده المكلفون فليتقوه وليراقبوه فى نظراتهم وميل قلوبهم وأعمالهم كلها فلا يأتوا منها الا ما أذن الله به وليجاهدوا نفوسهم وفى ذلك سلامتهم وسلامة عواقبهم والله ولى المومنين والحمد لله رب العالمين. ثم يوجه الله الخطاب الى المومنات بلهجة خاصة بهن لان هذا الخطر يهددهن كما يهدد الرجال بل هو فى حقهن أعظم وأفحش فيقول :

ـ **وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن الا لبعولتهن او ابائهن أو ابآء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير اولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المومنون لعلكم تفلحون**ـ فى هذه الآيات البينات الواضحات يأمر الله تبارك وتعالى النساء بغض أبصارهن وحفظ فروجهن وأن يستترن ولا يبدين زينتهن الا لرجال مخصوصين حددتهم الآية تحديدا واضحا وبينتهم بيانا ما عليه من مزيد هذه الآيات والآيات التى فى سورة الاحزاب والتى فى سورة النساء

يبين التشريع القرآني الحكيم الحدود التي تنتهي اليها المرأة المؤمنة ولا تتعداها وينهاها عن التبرج الجاهلي الاثيم الذي تورط فيه نساء اليوم وزينه لها السفهاء الفاسقون أبناء الهوى وادعوا في وقاحة وصفاقة أن الاسلام لم يحرم السفور وأنه لا اتصال بين الحجاب والفضيلة والعفاف وأن أحدهما منفصل عن الآخر وقالوا افكا وزورا أن الحجاب عادة من عادات الجاهلية وأن التشديد فيه من تقاليد القرون الوسطى وهذا كله افتراء على الله وانكار لما ورد بيانه في القرآن وليت هؤلاء الناس الذين غلبتهم أهواؤهم وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم ليتهم اذ غلبوا على أمرهم لم يفتروا على الله ولم يتجرءوا على انكار ما علم من الدين بالضرورة واستمر عليه العمل قرونا من الزمن حتى جاءت هذه الفتن الاوروبية التي سماها الناس حضارة وتقدما وافتتنوا بها، ليت هؤلاء المفتونين اعترفوا بذنوبهم ولم يفتروا على الاسلام فان افتراءهم هذا أعظم من سفورهم وتبرج نسائهم وما ذنبهم هذا بهين ولكن الافتراء والانكار أعظم من معاصي الافعال فتنوا الناس بما كتبوا ونشروا وصوروا وأذاعوا به مما يهذون من افتراءاتهم وادعاءاتهم وأحكام الاسلام محكمة وصريحة. ـ **قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ـ المومنات لهن أحكام خاصة بهن وقد كن يدخلن في الخطاب مع الرجال بالتبع ولكن لخطورة هذه المسألة وجه لهن الخطاب ولأن الامر آكد في حقهن وفتنتهن أعظم من الرجال وما افتتن الرجل بفتنة أعظم من فتنة النساء. أمر النساء أن يغضضن من الابصار غضا خالصا ليس كغض الرجال لان المرأة عورة لا يحل للرجل النظر اليها مطلقا أما الرجل فليس بعورة ولا يحرم على المرأة أن تراه لكن المحرم عليها أن تنظر اليه بشهوة أو تملأ به عينها وتتأمل حسنه وجماله فقد روى في الآثار أن المرأة التي تملأ عينيها بغير زوجها ملعونة وهذه فاسقة النظر ونظر العينين بشهوة زنى فقد

روى فى الحديث: ـ العين تزنى والاذن تزنى والرجل تزنى والفرج يصدق أو يكذب ـ وهذا الفرق بين الرجال والنساء فى النظر الظاهرى أما النظر الى العورات فحرام مطلقا سواء بين الرجال أو بين النساء ملعون فيها الناظر والمنظور اليه كما ثبت فى الحديث. وكذلك يكون غض الابصار فى النساء أزكى لهن كما قيل فى الرجال فهو أسلم لقلوبهن وكثيرا ما يسبب النظر مرضا فى قلوب النساء كما يقع للرجال ترى المرأة رجلا يعجبها فتكره زوجها ويسمج فى نظرها فتزور عنه وربما يؤدى ذلك الى الفراق وكثيرا ما تفرك نساء أزواجهن ويطلبن الفراق وربما يرجع ذلك الى فضول النظر وقد لا نشعر بالسبب والله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وسيجازى كلا على نيته وعمله فليتق الله النساء اللائى يسرحن أبصارهن فى الرجال وليقصرنها على أزواجهن فذلك أزكى لهن وأطهر لقلوبهن وابقى لرباط الزوجية المقدس وليسترن زينتهن كما أمرن ولو على العميان فقد روى عنه (ص) كان يوما مع زوجيه أم سلمة وميمونة رضى الله عنهما فاستأذن عليه عبد الله بن أم مكتوم فأمرهما بالقيام فقالتا انه أعمى فقال: أعمياوان أنتما؟ فأمرهما بالاختباء فعلمنا من هذه السنة القائمة ان المرأة لا يجوز لها ان تنكشف للاعمى ولا تجلس اليه لان مجرد شعور الرجل بدنو المرأة وجلوسها اليه فتنة له لاسيما العميان فانهم ادق الناس احساسا بمحاسن النساء واصواتهن ووسوسة حليهن وهذا شاعرهم بشار بن برد يقول ـ والاذن تعشق قبل العين احيانا ـ وهذا من حكمة الله ولطفه بخلقه اذا نزع من أحد حاسة من حواسه عوضه بما يسد مسدها من حواسه الاخرى فقد يكون فى ارهاف السمع واحساس الشم ما يذكى الشهوات الكامنة فتتحرك فلتحتجب المرأة اذن عن الاعمى وليمنع العميان من الدخول على النساء كما يمنع البصراء. ـ **ويحفظن فروجهن** ـ وحفظ فروجهن سترها عن الانكشاف وعدم استعمالها فيما لا يجوز ولا يحل من

الزنى والسحاق ونحو ذلك وغض البصر وحفظ الفروج أمر مشترك بين الرجال والنساء وابداء الزينة النهى فيه خاص بالنساء والمرأة كلها عورة الا وجهها وكفيها وقدميها ـ **ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها** ـ لايبدين لا يظهرن بل يخفين زينتهن فما هى هذه الزينة التى يجب اخفاؤها ويحرم اظهارها الا ما ظهر منها وما هو هذا الظاهر المستثنى؟ من المعلوم أن الزينة هنا تطلق على ثلاثة انواع : زينة الحلل ما تلبسه المرأة من ألوان اللباس وزينة الحلى وهى ما تتحلى به من حلية الذهب والفضة وانواع الجواهر وزينة الجسم وما تزينه به من الاصباغ كالحناء والكحل فى العينين وصبغ الشفاه وانواع ـ الماكياج ـ وابراز بعض المفاتن وهذا كله حرام ابداؤه لغير الازواج وذوى المحارم مع مراعاة نوع من الحشمة والادب مع ذوى المحارم. فاذا دعتها الحاجة الى الخروج فلتستتر بثوب سميك فضفاض لا شفاف ولا وصاف فاذا عمدت الى لحافها فزينته وطرزته او كان فى نفسه براقا او شفافا ككثير من لحف نساء عصرنا فهو الآخر زينة يحرم ابداؤها فهو فيه عاصية كاسية عارية وكان نساء النبىء ونساء الصحابة يتلحفن فى مروط غليظة ساترة وروى ان النبىء صلى الله عليه وسلم جاءه قباطى وهو ثوب رقيق من بعض الغنائم فأعطى منه دحية بن خليفة الكلبى رضى الله عنه وامره ان يتخذ بعضه قميصا ويستر بالباقى بعض نسائه فلما ادبر دحية ناداه وقال له لتتخذ المرأة تحته ثوبا غليظا يسترها. قال له ذلك لانه شفاف وحتى لا يتخذ من اهداء النبىء اياه حجة على جواز الالتحاف بثوب رقيق يشف عما تحته. اما زينة الحلى التى تحلى بها المرأة مواضع كثيرة من جسدها كالعقود فى النحور والاقراط فى الآذان والخواتم والاسورة والخلاخيل فحرام ان تظهر مواضعها من الجسد وحرام رؤية هذا الحلى فى هذه المواضع أو التسمع الى وسوستها وقد نهى الله النساء ذوات الحجول والخلاخيل عن ضرب الارجل حتى لا تسمع اصواتها فقال

تعالى ـ **ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن** ـ ثم قال تعالى ـ **الا ما ظهر منها** ـ وللعلماء أقوال فى هذا الاستثناء أشهرها قولهم : الا ما ظهر منها من غير قصد اظهاره كالريح ترفع بعض جوانب الثوب وكسقوط الخمار من غير قصد ونحو ذلك كما يحصل عند الركوب والنزول والاخذ والعطاء ومباشرة بعض الاعمال الضرورية. وقال آخرون وذلك أيضا كظهور اللحاف الذى تلتحف به المرأة قد تكون فيه بعض الرسوم وقد لا يكون للمرأة غيره وهى لا تقصد به التزين طبعا انما تدثرت به للاحتجاب. وقال آخرون :وذلك كظهور الوجه خاليا من الزينة عند تحمل الشهادة او ادائها او ظهور القدمين عند المشى وظهور الكفين عند مباشرة الاعمال التى تضطر الحاجة الى مباشرتها كالسقى والاحتطاب وحمل الاشياء ووضعها وهو قول ابن عباس ومن قال بقوله من العلماء أما عملنا نحن فعلى ما ثبت فى الاثر ان نساء النبىء (ص) ونساء المهاجرين والانصار أنهن كن يتلفعن بمروطهن ولا يظهر منهن الا عين واحدة وذلك انه لما نزل قوله تعالى فى سورة الاحزاب ـ ياأيها النبىء قل لأزواجك وبناتك ونساء المومنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك اذنى ان يعرفن فلا يوذين الآية ـ قالت عائشة رضى الله عنها : يرحم الله نساء الانصار لما نزلت الآية تجلببن ولم يظهرن شيئا من زينتهن كأنهن على رؤسهن الغربان، هذه هى الطريقة التى نتمسك بها وهو حجاب امهات المومنين ونساء الصحابة رضى الله عنهم ولا نزال عليها حتى نلقى الله تعالى ولا نبدل ولا نغير ان شاء الله وهى الاسلم والاحوط وهى التى دل عليها لفظ ادناء الجلابيب. اما العجائز من النساء القواعد فقد رخص الله لهن ان يضعن هذه الحجب السميكة والثقيلة رفقا بهن ولا يتبرجن بزينة كما تصنع نساء النصارى يعوضن ما غيره الكبر بالاصباغ والتكلف وما اقبح التبرج بالعجائز وصدق الذى قال : ـ ولن يصلح العطار ما افسد الدهر ـ وبعد هذا الترخيص فى

حقهن يقول الله تعالى ـ **وان يستعففن خير لهن** ـ فأمر المومنات مبنى على الاحتيـاط عـلى العفة والمبـالغة فى الحجـاب والتـكتم والله أعلم.

ـ **وليضربن بخمورهن على جيوبهن** ـ الخمر جمع خمار وهو ما تخمر به المرأة رأسها وسائر بدنها أى تغطيه، يقول الله تبارك وتعلى ـ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ـ اى يرسلن الخمار على الجيب ويشددنه على صدورهن والجيب هو شق القميص والدرع هو مخرج الرأس من الثوب ، قال تعالى لموسى عليه السلام : ـأدخل يدك فى جيبك الآية ـ وفى سورة الاحزاب يقول تعالى ـ ياأيها النبىء قل لأزواجك وبناتك ونساء المومنين يدنين عليهن من جلابيبهن ـ والجلباب هو الخمار الذى كانت المرأة العربية ترتديه أمرت المرأة المسلمة ان تدنيه عليها والادناء هو الارسال على الوجه والصدر وسائر البدن بكيفية تستر كل زينة ويؤكد ذلك بقوله ـ ولا يبدين زينتهن ـ مكررا هذه العبارة مرتين، فلا يبدو شعر ولا نحر ولا قرط ولا عقد ولا سوار ولا خلخال، والآية التى تأتى بعد تبين البيان الشافى ان الخلخال وموضعه أيضا داخل فى الستر وذلك حيث يقول تعالى ـ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ـ وسيأتى تفسيرها، وقوله تعالى ـ الا ما ظهر منها ـ أى الا ما ظهـر من غير قصد اظهـاره وما لابـد من اظهاره حين يضطرها العمل فى شئون الكسب من اظهار الوجه خاليا من الزينة والكفين كذلك وهو ما ذهب اليه بعض الصحابة والتابعين وبعض أئمة المذاهب والفقه وهذا يقتضيه يسر الاسلام وسماحة الدين ـ **ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او ابائهن او اباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهـن او بنـى اخوانهـن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ـ أذن الله للمرأة أن تبدى زينتها لهؤلاء المذكورين فى الآية وفى مقدمتهم بعلها وهو الزوج وأولى الناس بالنظر الى زينة المرأة

زوجها لا تستر عنه شيئا من بدنها الا ما تقتضيه الكرامة والحياء على وجه الاستحباب لا الوجوب كما حدثت عائشة رضى الله عنها وهى أحظى ازواج النبىء (ص) عنده قالت ما رأيت منه وما رأى منى، تريد بذلك العورة المغلظة، هذه همة وكرامة ودرجة من الحياء لا يصلها الا الانبياء والصديقون وليس عامة المومنين مكلفين بذلك اذ لا يحرم على أحد الزوجين ابداء موضع من بدن الآخر وأما الذين يرد ذكرهم بعد الازواج فهم بعدهم وليسوا فى رتبتهم من النظر الى زينة المرأة والتمتع بها وهم أقاربها ومحارمها ولم يذكر الاخوال والاعمام فى جواز النظر اليها وقد ذكروا فى جملة المحارم وثبت جواز النظر بطريق السنة الصحيحة والسنة مبينة للقرآن : كان لعائشة رضى الله عنها عم من الرضاعة واسمه أفلح أبوالقعيس، فأذن لها النبىء (ص) أن يدخل عليها ولا تحجب منه، فاذا كان هذا فى الرضاعة فالنسب أولى فلا اعتبار لبعض الشواذ الذين منعوا العم والخال لعدم ورودهما فى هذه الآية فقولهم من الخلاف المتروك الذى لا اعتبار له. هذا ما يتعلق بالمحارم ومع هذا ينبغى للمرأة أن تكون فى هيئة الاحتشام وبقدر ما تستتر وتحتشم تكون ألزم بالعفاف وأخلاق الاسلام. ـ **أو نسائهن** ـ ما المقصود بهذه الاضافة اضافة النساء الى النساء؟ هل هى مراعاة لهذه الفواصل وأجراس الكلمات أو مقصود بها نوع من التخصيص وهو ما وقع فيه الخلاف بين العلماء، فقال بعضهم هذه الاضافة مقصودة بها كل النساء اللاتى هن مثلهن فى الانوثة سواء فى ذلك المسلمات وغير المسلمات الكتابيات منهن والوثنيات وقال البعض: المقصود بالاضافة المسلمات مثلهن وهؤلاء منعوا المرأة أن تنكشف للكوافر الكتابيات والوثنيات لانهن لسن من نسائهن المومنات والبعض من العلماء أول الآية بتأويل آخر فقالوا: أو نسائهن أى النساء اللاتى يشبهن المسلمات فى الحصانة والعفاف لا يتهمن بالزنا ولايتصفن بأوصاف

البغايا، أما الخبيثات والعواهر فلا يجوز للمسلمة أن تنكشف لهن، ولعل هذا القول أقرب الى الاعتبار لان المرأة الفاسقة لا تؤمن على المرأة العفيفة أن تسعى فى افسادها وقد تصفها للرجال كما لو كانوا يرونها أو تصورها من حيث لاتشعر ثم تعرض صورتها من غير مبالاة طعنا فى سترها وعفافها وكثيرا ما انجر الفساد الى العفيفات بسبب تردد الفواجر عليهن يغرينهن بالفجور فالستر والابتعاد للمسلمة العفيفة أسلم لها، فمن واجبها اذن أن تمنع غيرها ممن نشأ على الفساد والانحراف من الدخول عليها فما أحسن تفسير من فسر الآية بالطيبات العفيفات اللاتى يؤمن جانبهن ولا يخاف منهن على المسلمات سوء بدخولهن عليهن ولو كن يهوديات أو نصرانيات أما الفواسد فلا يدخلن على المسلمات ولو نسبن الى الاسلام نسبة تقليدية جغرافية وهذا تفسير مهم للآية يتمشى مع حرص الاسلام على طهارة المسلمة وحصانتهاويتمشى مع الواقع وكثيرا ما تضطر المسلمة الى معاملة غير المسلمات من النساء وهو ما كان جاريا فى مدينة الرسول (ص)وفى عصره حيث يوجد اليهود وما سمعنا ان نساء الرسول والمومنين أمرن بالحجاب عندما يدخل عليهن الكتابيات لبعض حاجاتهن ولو كان ذلك مشروعا لزخرت به كتب السيرة التى لا تهمل ادنى من ذلك ـ**أوما ملكت أيمانهن** ـ أى عبيدهن. أباح الله لهن الا يحتجبن عنهم رفقا بهن لشدة الحاجة الى خدماتهم وكثرة ترددهم على البيوت، ويبدو أنه لا حاجة لنا الى اطالة الكلام فى حقهم لانتهاء أمر العبودية فى عصرنا وقد كان الاسلام حريصا على تحريرالعبيدففتح أبواب التحرير وضيق باب الاسترقاق وشدد فيه فلا يحل الا فى حرب مقدسة بين المسلمين والكفار ـ **أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال** ـ هؤلاء الصنف من الناس هيئتهم كهيئة الرجال ولا رغبة لهم فى النساء مطلقا ويوجدون فى كل زمان يتبع الواحد منهم أهل بيت ويخدمهم ولا رغبة له فى شىء الا فى ملء بطنه

وستر بدنه فهو لايشعر بالشهوة الجنسية ولا يتكلمون فى وصف محاسن النساء ولو فعلوا ذلك لطردوا من البيوت كما طرد النبىء)ص(واحدا منهم حين وصف له حسن نساء الطائف طرده وأمر أن لايدخل على النساء. ـ **أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء** ـالاطفال الذين لما تنتبه فيهم القوة الجنسية فهى لا تزال خامدة ولعل تفسير هذا وغايته هو بلوغ الحلم لقوله تعالى: واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم. والقرآن يفسر بعضه بعضا والحالة هذه لمجموع الاطفال الغير البالغين وقد يخصص العموم فلو أن طفلا مراهقا ظهر منه ميل الى النساء والرغبة فى الاتصال الجنسى لمنع من الدخول عليهن فان هذا الميل الجنسى هو الظهور على عورات النساء والاحتياط فى هذه الامور أولى بأهل الغيرة والدين. ثم قال تعالى: ـ **ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن** ـ أى لا يضربن رجلا برجل ضربا تسمع به رنة الخلاخيل لان وسوسة الحلى عورة وهى فتنة للرجال فيحرم ضرب الرجل بالاخرى أو بالارض لقصد اثارة هذه الفتنة الخفية وفى الآية دليل على وجوب اخفاء موضع الخلخال من الرجل فالمرأة كلها عورة الا وجهها وكفيها وقدميها أسفل الكعبين. ـ **وتوبوا الى الله جميعا أيها المومنون لعلكم تفلحون**ـ هذه آداب القرآن العالية وفى السنة أيضا ما يقويها فقد صح عن النبىء)ص(أنه كان ينهى النساء المتعطرات عن الخروج ولو الى المساجد بل لم يثبت عنه أنه رغب فى خروج النساء الى المسجد مطلقا انما نهى الرجال أن يمنعوهن من الذهاب اليها فقال: لاتمنعوا اماء الله بيوت الله فكل ما فى الامر هو النهى عن المنع لا الترغيب فى الخروج فقد روى أن امرأة من الانصار قالت له : يارسول الله انى أحب الصلاة معك، فقال لها لقد علمت أنك تحبين الصلاة معى غير أن صلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك وصلاتك فى حجرتك خير من

صلاتك فى مسجد قومك وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى هذا وفى رواية قال: فى المسجد الجامع وهذامنه (ص) مبالغة فى حب التستر والحصانة ورغبهن اذا صلين فى المساجد أن يتأخرن ويبتعدن عن صفوف الرجال فقال: خير صفوف الرجال المقدم وخير صفوف النساء المؤخر والذى يروى فى السير أن نساء الصحابة كن يذهبن الى المساجد فى صلوات الليل المغرب والعشاء والفجر متلفعات بمروطهن وما نعلم أنهن يذهبن اليها فى الظهر والعصر وكان النبىء (ص) ينتظر بالمصلين حتى يخرج النساء لكيلا تزدحم أبواب المساجد بهم جميعا ونحن اليوم نفعل ذلك بعد الدرس حتى لا تزدحم الشوارع أما أبواب المساجد فقد خصصنا أبوابا يدخلن ويخرجن منها. وكان النبىء (ص) يأمر النساء أن يلزمن جانب الطريق فقد روى عنه أنه خرج يوما فرأى بعض النساء فى وسط الطريق فقال لهن : ليس لكن الحق فى وسط الطريق. فلينتبه نساؤنا لا سيما وبعضهن يشغلن الطريق كله ويتكلمن وهن ماشيات فليتقين الله وليلزمن الآداب النبوية وقد شدد فريق من العلماء فى صوت المرأة ونحن نذهب الى جواز المقدار الضرورى من الكلام الذى تضطر المرأة اليه فى قضاء حاجاتها اذا كان خاليا من الخضوع الذى تنهى عنه الآية فى قوله تعالى: ـ ولايخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ـ أى مقتصدا على قدر الحاجة لا هذرا ولا هزلا ولا تغنجا يطمع الذى فى قلبه مرض. هذا تأديب الله لنا فيما يتعلق بشؤون النساء وموضوعهن أخطر الموضوعات وبعد هذا يأمرنا بالتوبة جميعا فقال:

ـ وتوبوا الى الله جميعا أيها المومنون لعلكم تفلحون ـ أى مما عساكم أن تكونوا خالفتم به هذه الآداب أو يكون فلت منكم من خائنة الاعين أو خواطر الانفس عند الرؤية والسماع أو الشم والله يعلم ضعفنا وميل نفوسنا وغلبة الاهواء عليها فأمرنا جميعا بالتوبة دائما وفتح لنا باب

مغفرته ورحمته وعلق أمر فلاحنا بالتوبة التى هى من صفات المومنين والله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

- وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم. وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ولقد أنزلنا اليكم ءايات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين.

يرشدنا الله تبارك وتعالى الى الآداب التى تطهرنا وتزكينا أفرادا ومجتمعات وتحصن العائلات والاسر من أسباب الانحراف لان الاسرة هى الخلية التى بصلاحها يصلح هذا النوع الانسانى لعمارة الارض وبفسادها يحق الهلاك للجميع ويشرع الله لنا من الشرائع ما يتمشى مع غرائز الانسان التى جعلها الله سببا لبقاء النوع البشرى ومن المعلوم أن حكمة الله اقتضت أن يجعل ذرية آدم خلائف فى الارض تنشأ أجيال وتفنى أجيال يخلف بعضها بعضا فى اظهار أسرار الله تبارك وتعالى فى هذا الكون مما أراد الله ان يظهر على ايديهم ينقل الاواخر ما خلفه الاوائل من العلوم وهكذا يتعاقبون حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين فنحن اليوم فى علم 1967 ننعم بحضارة ما كان يحلم بها اجدادنا ويتنبأ الناس اليوم بما سوف تئول اليه الحضارة فى تمام هذا القرن وبعده وكل شيىء فى تطور ولا يعلم عواقب الامور الا الله وما توصل اليه المخترعون اليوم لا يرجع اليهم الفضل وحدهم بل يشترك فى ذلك الاوائل والاواخر وبنيان الحضارة لا يزال لم يتم كل جيل يضع فيه لبنة فيذهب ويأتى من بعده فيزيد فيه والله يعلم من يبلغ نهايته فلاجل هذا التعاون البشرى

ركز الله غريزة الجنس في الذكر والانثى لبقاء النوع ووضع الله لهذه الغرائز حدودا حتى لا تطغى فتنقلب الى الضد فيكون الهلاك عوض البقاء يأمرنا الله بما فيه صلاح الدين والدنيا فما علينا الأن نطيع أمره ولا يجوز بحال ان نكبت هذه الغرائز أو نعطلها ونعطل مفعولها بمعالجات وعقاقير الا لضرورة يحددها الشرع لان تعطيلها وتعقيمها ينافى حكمة الله فى استمرارية عمران الارض، وبقدر ما يشدد الله فى وعيد الزنا والانحرافات الجنسية بقدر ما يرغب فى النكاح ويعد على السير فى خطه والتعاون على اتمامه واستمراره أجرا عظيما وثوابا جزيلا، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم - وفى بضع احدكم صدقة - ويعدنا على كل شعرة فى الجسد يرويها ماء الغسل من الجنابة حسنة والحسنة بعشر أمثالها، وفى الزواج الحلال استجابة طبيعية وسليمة لفطرة الانسان بنوعيه، وفى هذه الآية يتوجه الامر الى الجماعة المسلمة والقائمين على أمورها خاصة بانكاح الايامى من المسلمين والمسلمات والصالحين من العبيد والاماء لان المطلب جبلى لا يختص بالاحرار دون العبيد والكل اخوه فى الدين يتعاونون على البر والتقوى ويسعون فى حماية مجتمعهم من الفاحشة حتى يبقى مجتمعا نظيفا يقوم بمهمته أحسن قيام ويؤدى رسالته أحسن أداء، - **وأنكحوا الايامى منكم** - الايامى جمع ايم وهو الرجل والمرأة غير متزوجين امر الله بانكاحهما وانكاح العبيد الصالحين والاماء الصالحات وربما يوجد من العبيد او الاماء غير صالحين لا تتوفر فيهم كفاءة الزواج ويعرون عن الاوصاف التى يجب ان يتحلى بها رب الاسرة أو ربة البيت وأم الاولاد والناس حديثوا عهد بجاهلية وقد نشأ اماء الجاهلية وعبيدها على اباحية تصرفات يمتنع عنها الاحرار المتحصنون وقد ظل الاسلام حريصا على تطهير مجتمع الرق من تلك العادات القبيحة ورفع معنوياتهم وتقويم أخلاقهم حتى تساوى الاحرار وظل حريصا على تحريرهم وتخليص الناس من استعباد بنى ءادم بكل الوسائل حتى

ينهض الجنس البشرى كله لتحقيق خلافة الله فى الارض فليس الرق وان ظل موجودا بمانع من ابتلى به من حقوقه الانسانية كالزواج مثلا وليس التخويف واقامة الحدود بكافيين فى تطهير المجتمع من الفواحش حتى يلبى مطلب الغريزة فى الجنسين بتعميم النكاح فى مختلف الطبقات لا فرق فى ذلك بين اعلاها وأدناها ان الله لم يرض لنا أن نعيش فى المجتمع المسلم عزاب وعوازب يغدون ويروحون لا الى صمام يسكنون اليه ويتعففون بوجوده عن الحرام فأمر القائمين وأولياء الامور بالسعى فى احصان عزابهم بالزواج المشروع لا يمنعهم من ذلك فقرهم فالله مغنيهم من فضله الواسع الذى لا يضيق بمخلوقاته كلها فلا يقم الفقر مانعا هؤلاء الفقراء من طلب الزوجات ولا مانعا اولياء النساء من تزويجهم مخافة فقرهم فان الله الذى لايخلف وعده قد وعدهم ان يغنيهم من فضله فليثق هؤلاء وهؤلاء بوعد الله وليتعاونوا على تنفيذ ما يأمرهم به الله لصلاح دينهم ودنياهم و لله عاقبة الامور ـ **ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ـ فى الآية وعد من الله صادق وفى مطاويها نكتة لطيفة تنبهنا الى لطف الله الخفى فى مخلوقاته وذلك هو سر تولد شىء أو اشياء من وصل شيئين بعضهما الى بعض ولهذا امثلة كثيرة فى خلق الله أليس الله تبارك وتعالى يقول ـ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ـ فى أمثالها من الآيات فالزوجان هما شيئان متفقان فى النوع مختلفان فى الخصائص وهما قوتان باجتماعهما تتولد القوة الثالثة التى تنطوى فيها اسرار ومنافع فمثلا الكهرباء تتولد من قوتين احداهما موجبة والاخرى سالبة ولا بد من هذا الفرق بينهما فكأن احداهما ذكر والاخرى انثى وحين يتصل بعضهما ببعض تتولد من بينهما اسرارا وعجائب وكذلك الشان فى اتصال الذكر والانثى بالكيفية المشروعة تتولد منه لا الاولاد فقط بل مع ذلك أسرار وبركات وقد لا يكون اولاد ولكن تكون منافع وارزاق وبركات وقد يكون حظ كل من الرجل

والمرأة على انفرادهما ضئيلا ضعيفا لا يسمن ولا يغنى من جوع غير انه بعد اتصالهما يتولد حظ آخر جديد وطالع سعيد نتيجة اقترانهما وهذا واقع مشاهد لا مراء فيه وهو ما تصرح به الآية الشريفة ـ ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ـ فاعتبروا يا اولى الابصار وثقوا بوعد الله فليست حالة الزوجين مقترنين كحالتهما قبل اقترانهما وسنة الله فى مخلوقاته لا تتبدل وحكمته لا تختلف والنبىء(ص) يقول ـ التمسوا الرزق فى النكاح ـ وهو اسوتنا فى امتثال أوامر الله فقد ظل حريصا على تزويج الفقراء من أمته حتى زوج أحد اصحابه امرأة بما معه من القرآن لسور معدودات بعد ان لم يجد معه ولو خاتما من حديد فأنكحها أياه على فقره ثقة بوعد الله وامتثالا لامره ورفعا لمقام القرآن ويقول خليفته الاول أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ أطيعوا الله فيما امركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الرزق ـ ثم يتلوا قوله تعالى ـ ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ـ وشكا رجل من الصحابة فقره للنبىء (ص) فقال له ـ تزوج ـ فالزواج علاج ناجح لمشكلة الفقر فلنمتثل أمر الله واثقين بوعد الله محسنين الظن به ولا بأس بتحمل الدين من أجل الاحصان فان الله سيعينه على قضائه ما دام يريد ذلك فقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبىء (ص) ـ ثلاثة حق على الله ان يعينهم : الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الاداء والغازى فى سبيل الله ـ أى يرزقهم ويعينهم على قضاء ديونهم، فالعجب من الشباب الذين يصدفون عن الزواج مخافة العجز عن القيام بتكاليفه فيبقى الكثيرون عزابا حتى يطعنوا فى سن الكهولة وكثير منهم أساتذة يتقاضون مرتبات تمكنهم من القيام بالانفاق على العيال، ما بال هؤلاء هل يستعفون حتى يجدوا النكاح ام يشكون فى وعد الله ام ماذا يصنعون أين هؤلاء من قول النبىء (ص) مخاطبا الشباب بقوله ـ معاشر الشباب من

استطاع منكم الباءة فليتزوج فـانه احصن لفرجه واغض لبصره ومن لـم يستطع فليصم فان الصوم له وجاء، أى يصومون ليكفهم الصوم عن الوقوع فى الحرام! انهم واقعون فى فلسفة عقيمة فاسدة، فلسفة الملاحدة الماديين الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر، يصل احدهم الى مناصب عالية فى وظائف الدولة وربما يكون احدهم رئيس حكومة وهو عزب اين هؤلاء من أوامر ربهم وسنة نبيئهم الذى يقول ـ وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى ـ هذه محادة منهم لاوامر الله وسنة رسوله وسيرة المومنين الصالحين. ـ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله** ـ هؤلاء الذين لا يتيسر لهم النكاح أمرهم الله ان يستعينوا بالصبر والعفة حتى يرزقهم الله من فضله بما يمكنهم من الزواج الحلال فلا يجوز لهم ان ينفسوا غرائزهم فى الحرام ولا يكفى عدم وجودهم النكاح عذرا فى الوقوع فى الفاحشة فان هم فعلوا الفاحشة حق عليهم عقوبة الله فى الآخرة واقيمت عليهم الحدود فى الدنيا وان هم لاذوا بالصبر وتسربلوا بالعفاف أخلف الله عليهم ورزقهم ما يمتعهم المتعة الحلال والعاقبة للمتقين ولا يزال سياق هذه الآية فى هذا الموضوع المهم مستمرا فى معالجة المجتمع وحمايته من الانحراف بمختلف انواع الوقايات فلا يغفل جانب الرقيق الذين هم الآخرون بشر لهم رغبات البشر وشهواتهم الجبلية فيقول تعالى مرشدا وموجها عباده المومنين الى اعانتهم على التحرر فى تحررهم رفع لمستواهم الخلقى والاجتماعى يقول الله تعالى ـ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ـ هؤلاء العبيد والاماء الذين يرغبون فى فك رقابهم من غل العبودية ويسعون فى نيل بغيتهم من التحرر اعينوهم على بلوغ هذا المطلب النبيل ان علمتم فيهم خيرا وساعدوهم على المكاتبة والمكاتب هو من يشترى نفسه من مولاه بمبلغ مؤجل لآجال معينة ثم على أقساط يسعى فى الكسب

المشروع حتى يتحصل على تلك المبالغ قبل آجالها وربما يشق عليه الحصول عليها فيأمرنا الله تعالى ان ندفع لهم من مال الله وهو ما يجمع من الزكوات والخراج وسائر الصدقات حتى يتمكنوا من قضاء ديونهم ويخرجوا من ظلمة الرق الى نور الحرية، هذا ان علمنا فيهم خيرا يعنى ان رأينا منهم الاستقامة والصلاح وحسن التدبير وسائر الطباع السليمة التى تمكنهم من السلوك القويم بعد تحررهم سلوكا يجعلهم سعداء بعيشهم الجديد فى عهد الحرية ويجعل المجتمع سعيدا بهم. اما اذا كان المجتمع يشقى بهم اويتجرع الغصص بانحرافاتهم الخلقية التى قد تخلفها رواسب العبودية فيهم أو يشقون هم لعدم قدرتهم على الكسب فبقاؤهم فى كنف مواليهم ارفق بهم وبالناس والاسلام حريص على مصلحة الجميع وقد يراد بالخيرية الوفاء والمعلنى تتزاحم، الوفاء فى قيامهم بتحصيل ما عليهم من المبالغ التى فى ذمتهم ودفعها فى مواعيدها المضبوطة، اذا توسمنا فيهم القدرة على الكسب وصدق الوفاء واحترام المواعيد ساعدناهم على نيل حريتهم، والحرية عبأ لا يقوى على تحمله كثير من الضعفاء من العبيد والضعيفات من الاماء فهناك آلاف من العبيد والاماء طلبوا البقاء عند مواليهم لما صدر قانون ابراهيم لنكولن بتحرير العبيد، امتنع كثير من العبيد الزنوج فى أمريكا من الانصراف من بيوت مواليهم ووجدوا أن فى بقائهم معهم راحة لهم وآثروا البقاء فى العبودية ووقع أن كثيرا من العبيد الذين تحرروا ذهبوا ضحية الضياع وراحوا يتكففون الناس واماء كثيرات ذهبن يلتمسن العيش بفروجهن ميلا الى الراحة وانسياقا مع الهوى والشيطان، ففى هذا التقييد فى الآية الشريفة حكمة بليغة والله عليم حكيم فلنتدبر آيات الله ولنع ما ينطوى عليه كلامه العظيم من فقه فيه عواقبنا الحسنى فى الدنيا والآخرة وفى سياق تحصين المجتمع وتقويم النفوس بالآداب الاسلامية العالية ينزل الوحى بما يلى : ـ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا**

لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ـ هذا نهى من الله تعالى وتحريم أن يكره الناس اماءهم على احتراف الزنا ليكتسبوا من ذلك عرضا دنيئا قذرا ما أقبحه من كسب والمقصود بالفتيات هنا الاماء وهو تعبير قرآني رشيد وقد ورد النهى فى الحديث أن يسمى المالك مملوكه باضافته اليه: عبدى أو أمتى، ان هذه الاضافة فيها نوع من التعاظم لاينبغى أن يكون الا لله تبارك وتعالى الذى هو ربنا حقا ومالكنا ونحن عبيده وعبوديتنا له شرف لنا ومن أبرز الاوصاف لنبيئنا (ص): وأن محمدا عبده ورسوله وهذه النسبة تكررت فى القرآن هبة من الله وحنانا لانبيائه وأوليائه الصالحين والكل عبيد لله واماء خاضعون لسلطانه ماض فينا حكمه عدل فينا قضاؤه فسبحان ربنا العلى الاعلى يريد الله أن يطهرنا من قاذورات الجاهلية الاولى: كان الواحد منهم يتخذ من فتياته بغايا وقد يشتريهن لهذا الغرض يخصص لهن بيوتا للبغاء العلنى ينصب عليهن رايات اشهار لهذا العمل القبيح الذى لم يكن عندهم عيبا لانحراف موازين القيم فكأن الاماء بهائم لا أناسى فلا غضاضة فى اكراههن على الفاحشة فى حالة ما اذا أردن طهارة وتحصنا فلاقيمة ولا اعتبار لارادتهن وذلك لهوانهن على الناس فبينما يكون زنا المرأة الحرة عيبا من أكبر العيوب عندهم يكون توظيف النساء المملوكات لهذا الغرض أمرا عاديا لا غضاضة فيه بل هو تجارة يتعاطاها علية القوم فجاء القرآن بالحق مبينا للناس أنه لا فرق فى قيم الاخلاق ونظافة الاعراض بين الحرائر والاماء وانكم انما ملكتم من العبيد والاماء خدماتهم لا ذممهم وعقائدهم وأعراضهم ثم ان الله تبارك وتعالى تكرم بعفوه على ما سلف من عباده فى هذا الموضوع كسائر المواضيع التى كانت شائعة فى الجاهلية فجاء الاسلام بتشريعاته جبا لها وتطهيرا للمجتمع الجديد من أرجاسها وأدناسها وكان من أسباب نزول هذه الآية أن جارية

لعبد الله بن أبى اسمها معاذة كرهت هذا العمل وأرادت الطهور والعفاف فهربت منه والتجأت الى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فأخبر النبىء (ص) بأمرها فأمره أن يمسكها عنده ولا يردها الى مولاها فلما علم بذلك استشاط غضبا وجعل يطعن فى النبىء (ص) وصاحبه كيف يحبسان عن الناس أموالهم والطعن دأب أهل النفاق ومرضى القلوب فكبته الله واخوانه المنافقين بهذه الآية التى قطعت عليهم هذه السنة وردت على جنس الانسان كرامته كانسان يريد أن يعيش طاهرا نظيفا هذا بعد أن سن سنة الزواج وأمر بانكاح الاماء والعبيد حتى يتم بنيان الاسر على دعائم الطهر والعفاف ويتجه الناس كلهم وجهة البر والتقوى والصلاح فلا حيف ولا ظلم ولا انحراف. ـ **ولقد انزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ـ يكرر الله هذه الصيغة : انزال الله آيات بينات ومبينات ثلاث مرات: فى أول السورة وفى وسطها وفى أواخرها وذلك لما تشتمل عليه السورة من تبيين الله فيها سنن الهدى وضرب الامثال من الامم السالفة ومواقفها من أنبيائه ورسله وبيان عاقبة الذين خلوا ممن كذب بآيات الله ولم يتبع رسله، هؤلاء الذين وضعوا لهم شرائع جائرة أملتها عليهم أهواؤهم وأربابهم من دون الله: أحبارهم ورهبانهم وكبراؤهم يحرمون ويحللون لهم ما لم يأذن به الله فبين الله كيف كانت عواقب هؤلاء الامم سيئة وكم كان مصيرهم وبيلا بعنادهم ومحاداتهم لله ورسله وفى أخبارهم عبرة للمعتبرين وموعظة للمتقين فيجتنبون أنفسهم تلك العوقب ويتبعون انبياء الله ورسله ويسيرون على نهجهم القويم مقتدين بهداهم معرضين عن وساوس الكافرين والمنافقين فاعتبروا واتعظوا بايات الله المبينات لعلكم تتقون. وبقدر ما كانت عواقب المكذبين وخيمة بقدر ما كانت عواقب الصابرين المهتدين بهدى الله حسنة وقد فصل الله ذلك فى كتابه تفصيلا فما علينا الا ان نتعظ بايات الله ففيها الهداية الكاملة للمتقين

ـ الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب اللـه الامثال للناس واللـه بكل شيء علـيم.

أى نور يقارب نور الله الذى ينير لنا طريق السعادة الأبدية! النور الذى ينظم علاقات الناس ويضع اصول الحضارة البشرية والمدنية الحق ويبنى بناء الاسرة المسلمة على أساس من العفة والحصانة فالعائلة المصونة هى النواة الصالحة للمجتمع الصالح النظيف المجتمع الذى يستنير بنور الله ويضع مقاييس الحضارة على موازين الله التى لا تحيف ولا تجور فيجمع بين حضارتى الروح والمادة فلا يضخم جانبا على حساب الجانب الآخر، لاكحضاره هذا العصر الجوفاء الخالية من الروح والقيم الانسانية حضارة المتع واللذات البهيمية والتكالب على طلب العلو وجمع المال. لقد تفنن انسان هذا العصر فى اختراع وسائل التدمير والوحشية والتخريب واستعمل العقل والعلم فى أسباب الفتك باخية الانسان ففاق بذلك جميع الوحوش المفترسة فانطبقت عليه الآية ـ ثم رددناه أسفل سافلين ـ فقد تردى بحضارته المادية فى أسفل دركات التسلط واتباع الشهوات وهو دوما يكفر فى الهبوط لا فى الصعود وصدق الذى قال معلقا على صعودهم فى الفضاء ـ لأن يمشى الناس فى الارض وهم اطهار خير لهم من ان يطيروا الى السماء وهم فجار ـ ان انسان هذا العصر المتجرد من الدين المتفنن فى حضارة الظلم والدمار يفوق شياطين الجن فى التمرد على الله والمكر والكيد فكان على حد القائل :

وكنت امرءا من جند ابليس فارتقى
بى الامر حتى صار ابليس من جندى
فلـو مات قبلى كنـت أحسن بعـده
طرائق فسق ليس يحسنها بعـدى

ومن ابرز سمات هذا العصر ترديه فى الميدان الجنسى فقد هوى فى القرار الاسفل وانتكس فى حمأة الفساد الخلقى فسدت العلاقات الجنسية غاية الفساد وانتشر العرى والاختلاط ومات الشرف ودفنت الفضيلة وكثر أولاد الزنى وفساد هذا العالم بفساد المرأة فقد انسلخت من آخر بقايا الفضيلة وتجردت من ثياب الحياء والدين فهن الكاسيات العاريات المائلات المميلات وانفرطت عقود الاسر والعائلات وهى الطامة الكبرى ولعل الله يحدث فى ملكه ما يريده فيوجه عباده الى ما يخلصهم من هذه الهاوية فيرجعون الى النظر فى ما يصلح امرهم ويقوم اعوجاجهم ويملأ الفراغ الروحى الذى خلفته الحضارة الخاوية وقد بدأت تظهر البشائر وشعر الناس بحاجتهم الى الدين فهو وحده الذى ان راجعوه وجدوا فيه شفاء صدورهم وغذاء عقولهم وقلوبهم وصلاح جميع امورهم ولا يزال كتاب الله محكما مسايرا للعقل والتطورات العلمية ولن يزال كذلك صالحا لكل زمان ومكان، كيف لا وهو النور النازل من الله نور السموات والارض فمن اهتدى به فهو على نور من ربه ويوم القيامة يسعى نوره بين يديه وعن يمينه ومن ابتغى الهدى فى غيره فهو فى ضلال وظلام وشقاء ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. ولو اتبع الناس الآيات البينات من سورة النور لاستنارت قلوبهم وعقولهم واستقامت امورهم فى هذه الدنيا ويوم القيامة. الله نور السموات والارض، النور اسم من اسماء الله الحسنى نومن به ونعلم أثره فى المخلوقات ولا نعلم حقيقته كما لا نعلم حقيقة الذات العلية الواجب الوجود وهكذا جميع أسماء الله الحسنى ندعو الله بها ونومن بكمالاتها ولا نخوض فى حقيقتها فالخوض فى ادراكه اشراك والعجز عن ادراكه ادراك. والنور هو الضوء، شىء يضيء فى نفسه ويضيء غيره فالعين الباصرة لا تبصر الا بالنور فلولا النور ما أبصرت عين فالكون ظلام لولا نور الله فالله نور السموات والارض، والسموات كل ما

فوق رؤسنا والارض ما تحت ارجلنا فالتعبير بالسموات والارض كلما ورد فى القرآن يراد به الكون كله علويه وسفليه وقد توسع العلم فى تفسير النور واصبح فى امكان العلماء ان ينقلوا الصور والاصوات ويستعملوا القوى الهائلة فى هذا الكون بعد ان تتحول الى اشعة فكأن كل ما فى هذا الكون حقيقة النور طالما ان قواه العلوية والسفلية تؤثر فيها الاشعة وتنقلب الى أضواء فسبحان خالق النور والظلمة والكل من نور الله .

ـ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور ـ مثل نوره الذى يفيضه على قلوب المومنين ويريهم به طريق الهدى كمشكاة فيها مصباح، والمشكاة موضع المصباح فى بناء مرتفع ثابت والزجاجة تعكس ضوء المصباح وتقيه الرياح والامطار وكل ما يكون سببا فى اطفائه وقديما صنع الناس الزجاج وانتفعوا به فى شتى أغراضهم ووصف الزجاجة بالاشراق والصفاء كأنها كوكب درى نسبة الى الدر لقوة اشراقه ولمعانة فهو كوكب ممتاز فى اشراقه ولمعانة بين النجوم ثم وصف مادة هذا المصباح انها زيت جيد صاف من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية تشرق عليها الشمس من جميع جهاتها فهى شجرة مباركة الثمار نقية الزيت حتى انه ليكاد يضىء بذاته قبل اشتعال النار فيه. ضرب الله المثل بمصباح الزيت لان الناس كانوا يستصحبون بالزيت وجعله فى زجاجة فجميع انواع المصابيح فى الزجاج فهو الذى يحمى المصباح ويعكس النور وقد تطورت المصابيح ولم يستغن الناس عن الزجاج ، والمشكاة تحصر النور وتعكسه فهو نور على نور، نور المصباح عكسته المشكاة وجلته الزجاجة وحمته من تأثير الرياح فهو نور ثابت مضىء دائم

الاشراق مستمره وكذلك نور الله فى قلب المومن بينما قلب الكافر فى ظلام وقلب المنافق متقلب لا يظهر فيه النور الا لمحات سرعان ما تطغى ظلمات الشهوات والريب فيختفى فالكفار فى ضلال والمنافقون فى حيرة وشك والمومنون على هدى من ربهم ويقين ـ **يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم** يقذف الله من نوره فى قلب من يشاء من عباده وهو الشرح المعبر به فى آية الزمر ـ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ـ تلك هداية التوفيق والايصال يجعلها الله هبة منه للمومنين الذين استنارت قلوبهم بالايمان الصادق ولم تعتمها ظلمة الشهوات والمخالفات ولم يصبها النفاق فهى قلوب مشرقة زهراء عليها من الله حافظ يحفظها من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس فقلب المومن مشكاة لنور الله وجاء التعبير بهذا المعنى متكررا فى القرآن ـ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ـ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ـ فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه اولئك هم المفلحون ـ ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير ـ وهذا الدعاء فى الدنيا وذلك ان المومنين لما ذاقوا حلاوة النور ونعموا بهدايته أشفقوا أن ينتزع منهم فهم يدعون ربهم أن يتمه عليهم ويديمه فى قلوبهم ويغفر لهم ما قد يكون سببا فى النيل منه او اطفائه لان الذنوب ظلمات ونكت سوداء تطفىء النور اذا لم يغفرها الله فلقننا الله هذا الدعاء حتى نحافظ على هذا النور الموهوب من جنابه الكريم وأرشدنا الى منابع هذا النور ومطالعه وهو فى بيوته فى الارض التى هى المساجد فقال تعالى : **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من**

فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ـ فى بيوت، اى توجد هذه القلوب وتشحن فى بيوت أذن الله أن ترفع، أمر الله أن ترفع أبنيتها وتطهر من الارجاس والانجاس وترفع منزلتها عند الله والملائكة والمومنين وترفع منها الصلوات والذكر والدعوات وسائر القربات فهى مرفوعة وما فيها مرفوع باذن الله تعالى لا يلغى فيها ولا يدعى الى شر وانما يسبح الله فيها بالغدو والاصال رجال قلوبهم متعلقة بالمساجد منذ خرجوا منها حتى يعودوا اليها فهم دائما يحنون اليها لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة، رجال لهم بيوع وتجارات واعمال غير انها لا تصرفهم عن ذكر الله وعن السعى الى المساجد اذا نودى الى الصلوات وقبل ان ينادى اليها فهم يهرعون اليها ويسرعون كما يسرع الظمآن الى الماء فى يوم صائف لايجدون سكينة قلوبهم الا فى مناجاة الله وذكره فيها بالغدو والآصال فى جميع اوقات الصلوات بالليل والنهار فالمومن فى المسجد كالحوت فى الماء والمنافق كانه فى سجن مضيق يتمنى الخروج منه فشتان بين الفريقين فكأن المسجد مشكاة والمومن فيها مصباح يزهر وقد ورد فى الاثر ان المساجد التى يذكر فيها الله يراها اهل السماء مضيئة كالنجوم، يقسم ابن عباس ترجمان القرآن انه ليس هؤلاء الناس فارغين فى التجارة والبيع بل لهم تجارات واعمال، والانسان لا بد له من كسب يطلب به الرزق الحلال ـ وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله ـ وهذا الطلب عبادة ونوع من الجهاد متى كان جميلا ومن طرق مشروعة ومتى كان لا يلهى صاحبه عن ذكر الله وذكر الله اعم من الذهاب الى هذه البيوت لان ذكر الله رفيق المومن فى بيعه وشرائه ووزنه وكيله وجميع معاملاته ليس فقط فى وقت الذهاب الى المسجد فهو المهيمن عليه فى جميع تصرفاته كالاستاذ الجائم فى قلبه يوجهه من الداخل فهو على نور من ربه ـ **يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار** ـ هذا الخوف الذى سكن قلوبهم هو الذى

سددهم وقوم جميع اعمالهم فهم يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويعمرون بيوت الله ويذكرون الله ولا ينسونه ويحاسبون أنفسهم لانهم يخافون يوما عظيما يوم يقوم الناس لرب العالمين يوما تتقلب فيه القلوب وتضطرب من هول الموقف وتزيغ الابصار لما تشاهد من الامور العظام والاهوال الجسام وهو تعبير رائع يصور لنا مشهدا من مشاهد الحشر أجلى تصوير فلا ادل على شدة الهول وخوف العقاب من تقلب القلوب والابصار ـ **ليجزيهم الله أحس ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ـ ان أولياء الله يرجون رحمة الله فهم يجتهدون في طاعته طمعا في حسن جزائه وهم يحسنون الظن ويحسنون العمل وجزاء الله الا وفى للعاملين يجزيهم احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله كما قال فى آية أخرى ـ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ـ وفضل الله عظيم والله يرزق من يشاء بغير حساب وكثيرا ما يرد هذا التعبير فى القرآن والمراد به الوفرة الوافرة والدوام والا فكل شيء محسوب عند الله مقدور وكل شيء يقع وفق ارادته ومشيئته هداهم ووفقهم بمشيئته ثم يجزيهم بمشيئته احس جزاء فلله الحمد اولا وآخرا والذى تقرره الآية ان العمل هو مناط الجزاء لا الاقوال الجوفاء والامانى الفارغة فأما الذين تخالف أعمالهم أقوالهم فهم فى ضلال بعيد وكذلك الذين تخلو أعمالهم من الايمان والنيات وسيأتى الكلام عليهم فى قوله تعالى ـ والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة الآية ـ والقرآن ميزان الله عادل لا يجور ولا يحيف وقد بين طريق النجاة من الخسران فى الايمان والعمل الصالح وانه ليس بأمانيكم ولا امانى اهل الكتاب فالاسلام اذن حقيقة لا مجرد ادعاء وسيقال يوم القيامة للمفرطين المتمسكين بالامانى الفارغة للذين يبقون فى الظلام يقال لهم ـ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ـ ولا ينفعهم وجودهم مع العاملين وهم لا يعملون، فانهم ينادونهم ألم نكن معكم فيجيبونهم ـ بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم

الامانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور ـ فلنتدبر كل كلمة فى كتاب الله فان فيها دلالة واضحة على الحق، يهدى الله لنوره من يشاء .

ـ والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ـ

يضرب الله تعالى مثلين لاعمال الكفار التى لا تزن عند الله شيئا لخلو قلوبهم من الايمان. يعمل الكفار اعمالا فيها ما يعتبر من الخير ولكنها لا تقبل منهم لخلوها من الايمان وكثيرا ما يعملون لخير الدنيا ورغد العيش اعمالا كبيرة يظنون انها تنفعهم ولكنها لا تنفعهم وقد يصيرون الى الضد مما كـانوا يتوقعون كما قال الله تعالى فى حقهم ينفقون اموالهم لاغراضهم الخبيثة ـ فسينفقونها ثم تكـون عليهم حسرة ثم يغلبون ـ فمثلهم فى خيبة املهم وخسارة مستقبلهم كمثل من تراءى له سراب فى قيعة من الارض يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا فاشتدت حسرته وعظم حزبه ولقى فى نهاية امره جزاء الله العادل خلاف ما كان يأمل فما اعظم خيبته وما اشد خسارته وكذلك مصير اعداء الله الذين يحادون الله ورسوله ويحاربون اولياءه وما ظلمهم الله ان هو الا حسابهم يوفيهم الله اياه والله سريع الحساب وكذلك من تنكب طريق الله المستقيم وسلك طريق الشياطين ظانا ان فيها السعادة لا ينتهى امره الا الى شر العواقب ولا يلقى الا ما يلقى الظمان من السراب الذى تراءى له من بعيد بقيعة من الارض والسراب لمعان قاع من الارض لانبات فيه يتراءى بانعكاس أشعة الشمس فيه كأنه ماء ولا ماء وكثيرا ما يخدع السائرين فى البيد فضربه الله مثلا مطابقا لسعى الكفار وراء غرور شياطين الجن والانس ثم ضرب لهم مثلا آخر زيادة فى توضيح ما يؤول اليه امر الافاكين الكافرين.

فقال تعالى :

او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ـ وفى الآيات مقابلة بين حالة وحالة فبينما يقول فى وصف المومنين نور على نور اذا به يقول فى مثل الكافرين ظلمات بعضها فوق بعض وبين الحالتين من البعد والتباين ما بين الظلمات والنور فاعمال الكفار والمشركين فى فسادها وضلالتها وسوء عاقبتها كظلمات متراكمة فى بحر لجى بعيد القعر كثير الامواج تتعالى امواجه فى عنان السماء يركب بعضها بعضا وفوقها سحب وغيوم تحجب نور الشمس كما تحجب الشكوك والشهوات والاهواء نور الحق عن قلوب الكفار فتعمى بصائرهم فلا ترى شيئا كذلك الحال فى هذا البحر اللجى ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج الراكب فيه يده لم يكد يراها اى لم يقترب من رؤيتها لتراكم الظلام حيث ينقلب النهار ليلا وهذه حالة لا يتصورها الا من سافر عبر هذه المحيطات وقد كانت هذه الآية سببا فى ايمان احد ربابنة البحار حين قرأها وهو فى حالة من هذه الحالات فتعجب من هذا الوصف الدقيق لهذه الحالة بكلمات قليلة يعجز أمثاله الذين عاشوا فى البحارعن وصفها بكلام مسهب طويل فكيف يصفها محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف العجيب فى أسلوب عجيب وهو لم يركب البحر ولم يشهد هذه البحار اللجية فأيقن أن هذا من كلام خالق البحار لا من كلام محمد الذى نشأ وعاش فى الصحراء. وفى هذه الحالة تصوير دقيق لاحداق الخطر وقرب الهلاك لمن هذه حالته فكذلك الكفار أمرهم فى بوار وعاقبتهم الدمار أضلتهم أهواؤهم وطغت عليهم شهواتهم فهم فى ظلماتهم يعمهون يجرون وراء السراب يطلبون السعادة فى طرق الشقاء، ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـ **ومن لم يجعل الله له نورا فما**

له من نور ـ ما أقساه من حكم تحكم به هذه الآيات حكمها على هؤلاء العمى الصم البكم الذين يبتغون الهدى فى غير كتاب الله أضلهم الله ولم يجعل لهم نورا يبصرون به النور فالامر كله راجع اليه تعالى ربنا يهدى من يشاء ويضل من يشاء وما ظلمهم الله ولكن صرفوا فصرف الله قلوبهم هؤلاء يبتغون الهداية فى كتب الفلاسفة الاقدمين والمحدثين ويصدفون عن كتاب رب العالمين فالويل لهم ولكل من يصدف عن آيات الله ويتخذها وراءه ظهريا، أنى له أن يهتدى أو يبصر النور، ما له من نور ولو بصيصا من النور فالتعبير بالنكرة فى سياق النفى يقتضى العموم ويتأكد العموم بادخال ـ من ـ فلا مطمع لهم مطلقا ولا أمل فى النجاة ولا وزن لاعمالهم يوم القيامة ساءت عاقبتهم وساء مصيرهم فالمتأمل فى هذين المثالين الحكيمين تنفتح له آفاق من الاعتبار ويدرك الفارق الكبير بين من يهتدى بنور الله ومن يتبع الهوى ويؤثر الشهوات وشتان بين الفريقين ويا بعد ما بين العاقبتين والمؤسف أن الناس لا يعتبرون ولا يتدبرون لاسيما أهل زماننا فقد تفننوا فى الكفر وتمردوا على الاديان وراحوا يخترعون فنون الفجور والعرى حتى تجاوزوا كل حد وتنكروا للقيم الاخلاقية وانسلخوا من بقايا الحياء حتى انتهوا الى الدرك الاسفل مما لم يبلغه أسلافهم فقد أبيح الزنى فى كثير من بلاد الدنيا ودعت اليه مئات الجرائد والمجلات حتى فى البلاد التى كانت تعتبر متحفظة وانتشرت بين الشباب مذاهب شيطانية تدعو الى التحلل والخنث والانتحار الخلقى وتجاوزت البلاد الاوروبية الى البلاد الاسلامية وأعيا أمرهم الآباء والمرشدين وأعجز الملوك والرؤساء وما هذا الا نذير الفناء والهلاك ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ـ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات

والارض والى الله المصير ـ كل شيء فى هذا الكون الواسع يدل على وجود الله وعظمته وشمول علمه وقدرته وكمال حكمته، ينبهنا تبارك وتعالى بصيغة الاستفهام التى يراد بها تقرير المعنى ينبهنا لنتأمل ويخبرنا أن جميع مخلوقاته فى سماواته وأرضه تسبح له تسبيحا حقيقيا يعلمه هو وتصلى له صلاة يدركها وهو الذى أرشدها وهداها الى ذلك التسبيح وتلك الصلاة ثم يخصص من بينها الطير بالذكر لعموم مشاهدتها يراها الناس كلهم تسرح فى الجو ناشرة أجنحتها وهى تطير فى فضاء الله الواسع لاهجة بأصواتها المختلفة لا يعلم تسبيحها الا خالقها مصلية لله ساجدة له سجودا يعلمه وفى صلاتها وتسبيحها لخالقها شكر منها لنعمة الخلق والرزق والحياة وفى طيرانها وهى صافات أجنحتها أو قابضات أحيانا آيات بينات للمتفكرين ألم تروا أيها الغافلون وتعتبروا بها وبتسبيح ما فى السموات والارض من المخلوقات وعلم الله بأفعالها وحركاتها وسكناتها أليس فى هذا ما يهديكم للحق فتعلموا أن الله لم يخلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأن الله لم يخلق الانس والجن عبثا تعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم. وفى الآية يرد التعبير بمن التى للعقلاء وهذا اما تغليبا لان فى المسبحين عقلاء كالملائكة والانس والجن وفيه أيضا اشارة الى رفع المسبحين الى مقام العقلاء لما كان التسبيح من أعمال العقلاء ولا ينكر أحد أن فى الحيوانات نوعا من وعى والهام تقوم به بمهماتها التى تتحقق بها حكمة وجودها ـ وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ـ وهذه الامم لها لغات تتفاهم وتتخاطب بها وفى سورة النمل وحديث سليمان عليه السلام للهدهد وحديث الهدهد له بخبر صادق وعقيدة خالصة لله وفيها قول الله تعالى ـ وورث سليمان داوود وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين ـ وفى سورة فاطر يأمر الله الطير

والجبال ان ترجع تسبيح نبيء الله داود عليه السلام ففى المخلوقات وعى وتعبيـر واسرار دلت عليها آيـات الله البينات لاينكرها الا مكابر وقد توصل العلم الحديث الى بعض هذه الحقائق فى عالم الحيوان مثل مماك النمل والنحل وغيرها. وفى السيرة النبوية أن نبيئنا محمدا (ص) كان يسمع تحية السلام من بعض مخلوقات الله من الاشجار والاحجار والحيوانات وسمع تسبيح الحصاة فى يديه وتحت قدميه فسبحان من بيده كل شيء. ـ **ولله ملك السموات والارض والى الله المصير** ـ لله ملك السموات وملك الارضين واليه مرجع الخلق يوم القيامة فيحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم الجزاء الاوفى واليه مصير الامور كلها مبتدؤها منه ومآلها اليه فتأملوا أيها العقلاء فى هذا الملك الواسع الذى بنى على نظام دقيق ليس فيه تفاوت كل شيء فيه بمقدار وميزان وسير مطرد ملايين وملايين السنين وفى هذا دلالة على وحدانية رب السموات والارض ـ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ـ ولا يزال العلماء الباحثون فى الكون يعثرون على أسرار وعجائب تهديهم الى الايمان وتزيد المومنين ايمانا ومن أحب الله أحب أن يطلع على آياته. يريد الله أن ننظر ما ذا فى السموات والارض من آيات وعبر هى مجلى عظمته ووحدانيته وحكمته فى خلقه ويريد منا أن نعلم أنالملك له وحده لا شريك له في الملك ولا ولي له من الذل فنعبده وحده ونسجد له وحده ونعمل ليوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله فهو ملك يوم الدين اليه مصائر الامور كلها واليه المرجع واليه المآب.

ـ **ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار والله خلق كل دابة**

من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء والله على كل شيء قدير لقد انزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ـ يذكرنا الله تبارك وتعالى بهذه المشاهد العظمى التى تمر علينا مرارا وتكرارا وهى تدل على الله وترشد اليه ولكن الالف والعادة حاجبان يحجبان الغافلين عن التأمل والتفكر فى صنع الله ولو كانت هذه الاشياء قليلة الوقوع لا تحدث الا مرة فى عدة سنوات مثلا لكان الناس يحتفلون لها ويخرجون من دورهم يترقبون مرور هذا المشهد العجيب وكذلك آيات الله فى الافلاك فهم يترقبون الكسوف ويسافرون له الى بلاد بعيدة بينما المطالع تمر بنا آياتها كل يوم ونحن غافلون وما ذلك الا لتبلد فكر الانسان بالالف والعادة وما كان ينبغى للانسان أن يغفل عن آيات الله فى الارض والسماء، فهذه السحب المتراكمة بين السماء والارض وما يحدث فيها من بروق ورعود وما ينزل منها من أمطار وبرد وهذه الدواب التى تدب على ارض الله بمختلف أنواعها آيات تدل دلالة واضحة على عظمة خالقها وقدرته وعلمه ووحدانيته ورحمته بخلقه ـ **ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما** ـ ألم تروا جميعا أيها العقلاء رؤية تدبر وتفكر واعتبار أن الله يسوق السحب الثقال، بينما تكون السماء صاحية اذا بطقعة من سحاب تتكون أو تطل من الافق ثم تتسع وتعرض ثم تنضم اليها سحائب أخرى فاذا بها ركام متداخل بعضه فى بعض كأنها جبال تسيرها القدرة الالهية بين السماء والارض تحمل آلاف آلاف من أطنان المياه تسوقها الرياح المسخرة الى حيث يريد الله ووصف السحاب بالجبال أمر عجيب فيه معجزة لاتقل عن المعجزة التى مرت بنا فى وصف البحر اللجى تدل أن هذا الكلام ليس من عند محمد(ص) انما هو من عند الله خالق السحاب فما كان البشر يطيرون فى الفضاء

ليشاهدوا قمم السحب من فوق واليوم تجلت هذه الحقائق حين طار الناس فوق السحب فاذا بهم يشاهدون كل يوم هذه الجبال المتراكمة من السحب لها قمم كقمم الجبال الشامخة تسير فى فضاء الله العريض ـ **فترى الودق يخرج من خلاله** ـ ترى المطر يتكون قطره من خلال السحب وينزل وابلا أو طلا وفى نزول المطر من السماء آيات تدل المتفكرين وحتى الغافلين تنبههم على عظمة الله وقدرته ورحمته التى تعم مخلوقاته وقد ينزل البرد عقابا على الناس الذين يكفرون بنعمة الله ويحادون الله ورسله بارتكاب المناهى وترك المأمورات، وفى تكوين البرد وتجمد الماء فى السحاب الى قطع مستديرة صغيرة أو كبيرة واصابتها أرضا دون أرض وقوما دون قوم آيات بينات على قدرة الله وحكمته وأن الامو تجرى بتقديره وعلمه وأن كل شىء بارادته و أن لا اله الا الله وحده لا شريك له فى ملكه فعال لما يريد انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون يخلق السحب ويؤلف بينها ويغرق البلاد فى ساعة من نهار. **وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار** ـ يتحدث أهل العلم بظاهر الحياة عن هذه الامور بالظواهر الطبيعية التى يشاهدونها من تبخر السحب من مياه البحر ومهاب الرياح وأسبابها وسوقها للسحب واستحالة البحار الى ماء سائل ومتجمد عندما يمر على طبقة باردة من الجو ثم ينزل مطرا أو بردا أو ثلجا نعم هذا صحيح وهل هذا التفسير يغض من قدرة الله وآياته فى الكون؟ كلا بل يزيد المومن ايمانا، فمن الذى خلق البحار وأحال الماء بخارا وأنشأ الرياح اللواقح وجعل من البحار مطرا وبردا وأنزل الماء بقدر معلوم وعزل عنصرا من عنصر والهواء عناصر والماء عناصر فسبحان من صنع وأتقن كل شىء صنعا وسبحان من يصيب من يشاء برحمته أو نقمته ويصرفها عمن يشاء لا يملك البشر ذلك بقوتهم ولا بعلومهم لا دفعا ولا

نفعا فتراهم ينظرون ولا يملكون من الامر شيئا والامر كله لله وفى هذا ما يكفى للاعتبار ويدعو الى توحيد الواحد القهار ـ **يكاد سنا برقه يذهب بالابصار** ـ أضواء البروق تلمع من خلال السحب تقوى أحيانا حتى لتكاد تخطف أبصار الناس بشدة لمعانها وقد وقع فعلا أن عميت أبصار أناس بسنا برق خاطف قوى كما وقع أن صرع أناس برعود قاصفة وما ذلك الا لقوة ماهنالك من شحنات كهربائية عظيمة هى من صنع الله الذى أتقن كل شىء والفرق بين المومنين والكافرين أن المومنين يردون الاسباب الى مسبب الاسباب ولا يزيدهم اطلاعهم عليها الا ايمانا بربهم أما الكافرون فيقفون عند الاسباب ويغفلون عن مسببها ويكفرون بربهم وخالقهم وقد مطر الناس فى زمان النبىء (ص) فلما اصبح الصباح قال لهم: أتدرون ما ذا قال ربكم؟ قال: أصبح من عبادى مومن وكافر، فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب. فهذا الحديث ارشاد للمومنين أن لا يعلقوا الاشياء بأسبابها غافلين عن خالق الاسباب والمسببات كما هو شأن الكفار والملاحدة، نعم ينبغى أن نتعلم ونطلع على أسرار الله فى الكون فان العلم ينفى الخرافات عن عقولنا ومداركنا ولكن لا يجوز أن تنقص هذه المعارف من روعة آيات الله حين نشاهدها فهذا خطر على ايماننا يجب أن نأخذ حذرنا منه فالعلم الصحيح من شأنه أن يدعو الى الايمان ويزيد المؤمن ايمانا وخشية وصدق الله العظيم ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ـ **يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار** ـ هذا مشهد من المشاهد الكونية العجيبة والعميمة يتكرر على جميع سكان المعمورة دائما يشملهم كلهم فلا يخرج أحدهم من الليل أو النهار فهما يتعاقبان يطلب أحدهما الآخر طلبا حثيثا وفى تقلبهما عبرة عظيمة لاولى الابصار الذين ينظرون ببصائرهم الى آيات الله فى أرضه

وسمائه ولا يمرون عليها صما وعميانا فسبحان من جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد أن يذكر أو اراد شكورا، يقلب الليل والنهار تقليبا رفيقا بالتدريج لا بالطفرة رفقا بعباده فينقص ضوء النهار شيئا فشيئا وتنزل ظلمة الليل شيئا فشيئا وهو معنى الايلاج الذى ورد فى غير موضع فى القرآن ـ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ـ وفى ذلك التدريج رفق بمخلوقاته اذ لو نزل أحدهما نزولا مفاجئا لعشيت الابصار وربما عميت فسبحان الذى وسعت رحمته مخلوقاته فما على العاقل الا أن يتأمل مشرق الشمس ومغربها والفجر الذى يسبقها والشفق الذى يعقبها فسبحان رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق وفى ذلك ما يكفى عبرة لاهل الاعتبار والذى يقلب الليل والنهار هو الذى يقلب قلوب عباده فبعضها كالليل وبعضها كالنهار وبعضها متقلب وكان من دعاء النبىء (ص): اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك. وفى تقليب الليل والنهار عبرة أخرى ألا وهى مرور أعمارنا سريعة، أليس الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد ويأتيان بكل موعود! هذه عبرة وذكرى لنا حتى نبادر آجالنا قبل حضورنا باغتنام أيامنا ولياليا المقبلة بفعل الطاعات وترك المحرمات والتوبة من الخطيئات قبل الفوات وكل ما هو آت آت فأيامنا مطايانا وهى تجرى بنا جرى الخيول الراكضات فمن لم يغتنمها كانت عاقبته الحسرات وهيهات هيهات وفى تقليب الليل والنهار نعمة من الله على عباده لينتفعوا بهما جميعهما فأحدهما للسكون والراحة والآخر للكسب والحركة والانتشار فى الارض والابتغاء من فضل الله ولولا هذا التناوب بين الليل والنهار لضاعت هذه المصالح الضرورية ولهلك كثير من مخلوقات الله حيواناتها ونباتها وغير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم وصدق الله القائل: ـ قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بضياء أفلا

تسمعون قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ـ يأتى هذا التعبير على طريق اللف والنشر المرتب أى لتسكنوا فى الليل ولتبتغوا من فضل الله فى النهار فلولا تعاقب الليل والنهار لما صلحت الحياة على الارض فظلام الليل وبرده له دخل كبير فى تكون المخلوقات وعيشها وتطورها على ظهر وفى باطن الارض وفي وسط البحار وقاعها وكذلك ضوء النهار وحرارته وللشمس وأشعتها والقمر وضيائه والنجوم تأثير كبير فى الحيوان والنبات والجماد على الارض وعلى سائر الكواكب التى هى من جنس الارض وفى الاجواء التى بينهما ففى تقلب الليل منافع وحكم وأسرار وبتقلبهما يتكون الزمن ليعلم الناس عدد السنين والحساب وكذلك فى تقلبهما من قصر الى طول واعتدال واختلاف ذلك فى أقاليم الارض منافع للناس والحيوان وأسرار لا يعلم كنهها الا خالقها وقد نبهنا الله الى تدبر ذلك فى غير موضع من كتابه الكريم: ـ ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب...الآيات ولا يزال علماء الطبيعة يعثرون فى بحثهم المستمر على كنوز وأسرار تكمن وراء هذا التقلب وهذا الاختلاف ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار، فى تقلب الليل والنهار عبرة ومنفعة للعمال وللعباد فالعامل يستنفذ طاقته فى ضوء النهار فى جلب ما ينفعه وينفع الناس من فضل الله ويسعى فى مناكب الارض وفى بطون البحار وفى طبقات الجو فاذا جاء الليل وأخذ قسطه من النوم استرجع طاقته بتلك الراحة فينهض صحيحا كأن لم يتعب والعابد يغتنم تقلب الليل والنهار فيقوم الليل يناجى ربه فى سكون الليل ويصوم النهار فيأخذ حظه منهما جميعا فسبحان من يقلب

الليل والنهار وما أعظم آلاء الله فى تقلبها ولله فى خلقه عبر وأسرار وصدق القائل:

فياعجبا كيف يعصى الالـــــه ... أم كيف يجحده الجـاحد
ولـله فـى كـل تحـريكـة ... وتسكـيـنة أبدا شـاهـد
وفى كـل شىء لـه آيـة ... تـدل عـلى أنـه الـواحـد

ـ الله نور السموات والارض ـ انكم أيها الناس لا تدركون نور الله فى ذاته فتأملوه فى مخلوقاته فهذه مشاهد أربعة من أعظم مشاهد الكون تقدم منها ثلاثة ثم يعقبها المشهد الرابع وقبل أن نتعرض لتفسير المشهد الرابع نستعرض هذه المشاهد المتقدمة: المشهد الاول ينبئنا أن كل شىء فى الكون يسبح لله ويصلى له ويلفتنا الى هذه الطيور التى تسبح فى الفضاء وهى الاخرى تسبح لله وتصلى له، المشهد الثانى يدعونا الى التأمل فى السحب وتكونها والامطار ونزولها وفى ذلك آيات للعالمين، المشهد الثالث يحدثنا عن تقلب الليل والنهار وما فيهما من المنافع والعبر وكل هذه المشاهد الاربعة: ما مضى منها وما يأتى تتكرر فى جميع جهات المعمورة لا تختص منها جهة دون جهة فهى على سمع جميع الناس وبصرهم وجميع مداركهم فما عليهم الا أن يتأملوا ويعتبروا فاذا بهم يبصرون نور الله فى السموات والارض فالتأمل والاعتبار اذن هو المدد لنور قلوب المومنين أولى الابصار وهو الزيت الذى يمد مصابيحها بالضوء الدائم فلا تزال زاهرة مبصرة وهذه التأملات فى مخلوقات الله بالاضافة الى ما وقر فيها من ايمان وحب لله نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء فهنيئا للعارفين الذين متعهم الله بالنور وأروى ضمائرهم من سلسبيل معرفته فهم الرواء وغيرهم الظماء ـ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شىء قدير لقد انزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط**

مستقيم ـ هذا هو المشهد الرابع من مشاهد الخلق التى يلفت الله أنظارنا اليها والمشهد هو عملية خلق الاحياء وأصل مادتها واختلاف أجناسها وأنواعها ودلالة وجودها على قدرة الواحد القهار. الدابة كل ما يدب على الارض وفى الكهوف والمغارات وفى قيعان البحار والمحيطات ومنها قوله تعالى: ـ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ـ ومن أول ما يدخل ضمن هذه الدواب نحن معاشر بنى آدم وكل هذه الدواب مخلوقة من ماء، ترى هل هذا الماء هو الاصل الاول الذى منه هذه الدواب أو الثانى الذى تتكون منه هذه الدابة بطريق اللقاح بين ماء الذكر وماء الانثى أو كلاهما وفى كل ذلك آيات تدل على الخلاق العليم ولا يزال العلماء حيارى أمام معجزة الخلق معترفين بعجزهم جميعا عن خلق خلية الحياة فى الاحياء، وقليل من التدبر فى المخلوقات يهديك الى كثرة نشوء الحياة فيما دق وجل من الاحياء وتكررها فى ملايين وملايين الصور فى كل لحظة فعجبا بعد هذا لمن يغفل ولا يعتبر وسبحان الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى فما هى الحياة وما هو الروح؟ هذا ما عجز عن ادراكه العلماء ولن يدركوا حقيقته حتى تقوم الساعة ـ قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ـ ثم ألفت الله أنظارنا الى أشكال وأنواع المخلوقات لنتدبر فى ذلك ونتفكر ولا نغفل فقال: ـ **فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شىء قدير** ـ من الدواب من يمشى على بطنه وهى جميع الزواحف فى الارض والحيتان فى قيعان البحار ومنها من يمشى على رجلين وهم بنو ءادم والطيور ومنها من يمشى على أربع وهى الانعام التى فيها منافع بنى ءادم وهى الازواج الثمانية ومنها الدواب التى منها ركوبهم وحمولتهم فى حال ظعنهم واقامتهم وفى حال حربهم وأمنهم وهى الخيل والبغال والحمير وغير ذلك كثير

كالغزلان والوحوش والسباع والكلاب والسنانير كل حيوان صوره الله على الصورة التى تليق وعلى الشكل الذى يساعده على القيام بمهمته أحسن قيام وميز الانسان من بينها بهذه الصورة الجميلة يمشى على رجلين ويبطش بيدين وأصابع متفرقة ورأسه مرفوعة لانه الحاكم الآمر الناهى المتصرف باذن ربه فى غيره من المخلوقات التى سخرها الله وذللها له وخلقها من اجله ولخدمته خاضعة راكعة امامته حانية ظهورها ليركبها ويحمل عليها اثقاله ويرتفق منها فهى مسخرة له لينتفع منها ويشكر الله على ذلك ويتفكر فى صنعها لعل التفكر يهديه الى توحيد الله وتعظيمه وليس ذكر ما تقدم على سبيل الحصر بل على سبيل التنبيه والتذكير والا ففى ارض الله برها وبحرها آلاف من الدواب تمشى على أكثر من اربع كهذه الحشرات التى نشاهدها وكثير من الحيتان فى البحار وانما ذكرنا الله تعالى بالانواع التى نحن من جملتها والانواع التى نرتفق بها ولا نفارقها فالاعتبار بها الزم والنظر اليها اقرب والنعمة فى وجودها أعظم. ـ وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون ولتستووا اعلى ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخرنا لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون ـ يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شىء قدير ـ ان الله ينشىء الخلق ويصور المخلوقات كما يشاء ويريد لا على نمط سابق ولا بتصميم مصمم بل المصممون والمهندسون يقلدون صنع الله فيصنعون الطائرات على اشكال الطيور ويصنعون السفن على اشكال الاسماك وما ذلك الا لكمال صنع الله ـ **ان الله على كل شىء قدير** ـ يذيل هذه المشاهد الاربعة بالتأكيد على عموم قدرة الله على كل شىء لا يعجزه شىء مطلقا شانه عجيب هو الخلاق العليم ـ **لقد انزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** ـ يذكرنا الله ربنا ويتنبهنا من غفلاتنا بآياته المبينات الجليات المتلوة فى كتابه المنزل ويذكرنا

بایاته المبینات المجلوة فی الاکوان فی الارض فی السماء کما یعبر القرآن کثیرا بعد مثل هذا العرض بقوله ـ ان فی ذلك لآیات لقوم یتفکرون ـ لقوم یعقلون ـ افلا تتفکرون ـ افلا تذکرون ـ أفلا تعقلون ـ تنبیهات وتحریضات وهی کلها دلالة وهدایة بیان لجمیع الناس ثم یختم السیاق بهدایة التوفیق والایصال وهی خاصة للسعداء من عباده فیقول ـ **والله یهدی من یشاء الی صراط مستقیم** ـ من یرد الله ان یهدیه یشرح صدره للاسلام والصراط المستقیم هو طریق الحق المؤدی الی رضی الله وهو طریق التفکر والاعتبار والعمل أثر ذلك بایات الله الهادیات الی صراط مستقیم فأولیاء الله ینظرون ویتفکرون ثم یسمعون ویعقلون فهم علی نور من ربهم وغیرهم ینظرون ولا یبصرون ولا یسمعون ولا یعقلون ولو علم الله فیهم خیرا لأسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون فعلینا ان نتفکر ونجتهد فی الطاعة ونتضرع الی الله ولا یشغلن احدا منا وسواس الجبریة فان الله اقام الحجج الواضحات علی خلقه ولم یجبر أحدا علی معصیة ولا صرف احد عن طاعته الا ان ابی وانصرف بنفسه وبمحض اختیاره فلولا الاختیار ما استحق أحد المصیر الی الجنة ولا الی النار وفی هذا المعنی یقول الله فی شأن النفس ـ لها ما کسبت وعلیها ما اکتسبت ـ فلنقف عند هذا الحد ولا نخوض فی ظلمات الجبریین والقدریین ولا نکون کأصحاب الاهواء الذین یتبعون الهوی ویلقون التبعة علی القدر کذلك کذبوا علی الله وکذب الذین من قبلهم فما ظلمهم الله ولکن کانوا انفسهم یظلمون ثم ننتقل مع سیاق الآیات الی الذین آمنوا بألسنتهم ولم تومن قلوبهم فنری کیف اخبر الله عن حالهم وماذا حکم علیهم ـ **ویقولون امنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم یتولی فریق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمومنین واذا دعوا الی الله ورسوله لیحکم بینهم اذا فریق منهم معرضون وان یکن لهم الحق یاتوا الیه مذعنین أفی قلوبهم مرض أم ارتابوا أم یخافون ان**

يحيف الله عليهم ورسوله بل اولئك هم الظالمون ـ سبق ان تحدثنا عن آيات الله المبينات التى يهدى بها الله من يشاء الى صراط مستقيم وهم المومنون الذين شرح الله صدورهم لنوره فهم خاضعون لأحكام الله ورسوله مسلمون بها تسليما لانهم يوقنون بما فيها من حكمة بالغة فهى نازلة من لدن حكيم عليم وهناك فريق من الناس على خلاف ذلك: يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولون بعد ذلك لمرض فى قلوبهم وريب فى حكم الله الحكيم العادل، أولئك نفى الله عنهم الايمان ووصفهم بأنهم هم الظالمون يتبعون أهواءهمآلهة من دون الله فهم لا يومنون بالله ولو نطقت ألسنتهم بألفاظ الايمان لان حقيقة الايمان هو الاذعان والتسليم المطلق وحسن الظن بأحكام الله ورسوله والطاعة الكاملة فى المنشط والمكره. اولئك قوم منافقون مرضى القلوب يدعونالايمان بالله وبالرسول والطاعة لهما وباطلة دعواهم لانها مجرد كلام تخالفه الحقائق والاعمال وجاءت الاشارة اليهم بأولئك لبعدهم عن طبيعة المومنين الصادقين لا يمتون اليهم بصلة فحق أن يبعدوا عن جماعتهم وفى هذه الآية باب كبير من فقه العقيدة يبين أن الايمان انما هو قول وعمل وطاعة وسلوك وأن مجرد الدعوى لا يكفى عند الله بل هناك ميزان عادل تعرض عليه أحوال الناس وأعمالهم ونياتهم فما زكاه ميزان الله فهو الزكى وما زيفه فلا شىء ـ **واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضونوان يكن لهم الحقيأتوا اليه مذعنين** ـ اذا دعا هؤلاء المنافقون ومرضى القلوب الى الله ورسوله ليحكم بينهم، أفرد الضمير هنا ولم يثن لان حكم رسول الله هو حكم الله فالحاكم هو الله والرسول (ص) ما هو الا منفذ اذا دعا هؤلاء الى حكم الله اذا فريق منهم معرضون لا يقبلون حكم الله ورسوله لانهم يعلمون أنهم ظالمون وأن الحق ليس الى جانبهم ويعلمون أن رسول الله (ص) سيحكم بالحق فلا رشوة ولامحسوبية ولا حيف ولو كانوا يعلمون أن شيئا من ذلك واقع

لأقبلوا مسرعين مستعملين الرشوة والجاه كما تعود ذلك الظالمون عند القضاة الجورة أما رسول الله (ص) فلا يجدون عنده الا العدل وان يكن لهم يقبلون مذعنين الى حكم الله ورسوله ذلك لانهم يعلمون أن رسول الله (ص) لا يحكم الا بالحق كما أمره الله فلا تحمله عداوة أهل النفاق والكفر على أن لا يعدل وهم يعلمون فى أنفسهم اذا كانوا ظالمين أو مظلومين وقل أن يتخاصم اثنان الا ويعلم كل منهما نصيبه من الحق أو الظلم ولكن الظالم يعول على الفجور فى الخصومة وذلك شأن المنافق ـ اذا خاصم فجر ـ فاذعان هؤلاء النمط من الناس لحكم اللهورسوله حين يعلمون ان الحق لهم لا مزية لهم فيه ولا يعتبر لهم طاعة ومبرة انما هو بدافع الهوى وميل النفس فهو وعدمه سواء ما داموا لا يذعنون دائما لحكم الله ورسوله كما يذعن المؤمن الذى كتب اللهفى قبله الايمان وهذا منه فى جميع القضايا الخاصة والعامة، ما كان بين شخص وآخر وما كان بين جماعة وأخرى وبين قبيلة وأخرى

ـ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ـ هذا استفهام تعجب من حال هؤلاء الذين ان دل اعراضهم على شىء فعلى أحد ثلاثة أسباب: فى قلوبهم مرض وهذا المرض هو النفاق الذى هو اضمار الشرك وظن السوء بالله ورسوله كما عبر الله عن هؤلاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ـ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ـ والسبب الثانى هو الشك والارتياب ـ **أم ارتابوا** ـ فهم فى ايمانهم الضعيف المتردد فى شك من عدالة حكم الله ايمانهم غير ثابت لم تخالط قلوبهم بشاشة الايمان كالمومنين الصادقين والسبب الثالث هو الخوف من الحيف فى حكم الله كأن هؤلاء يخافون أن يظلمهم الله بحكمه عليهم بل هم الظالمون الجائرون وأشار اليهم باشارة البعد لبعد هؤلاء الظانين ظن السوء والظالمين عن زمرة المومنين المذعنين لاحكام الله ورسوله، فأحكام الله وأحكام رسوله عادلة ما

أبعدها عن الحيف والجور وكتب السيرة النبوية مليئة بما يؤكد ذلك ففى فتح مكة مثلا شاهد كبير وذلك أنه (ص) لما فتح مكة واستلم مفاتيح الكعبة أبى الا أن يسلمها لسدنتها الاصليين ولو كان غيره لما ردها اليهم بعد الذى صدر من المشركين ولكن رسول الله (ص) رد الامانة الى أهلها كما أمره الله فى كتابه المنزل: ـ ان الله يامركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ـ فمن كان فى قلبه شك فى أحكام الله وأحكام الرسول أن يكون فيها حيف وظلم فليس بمومن ولو ادعى الايمان ونطق بكلمة الشهادة وهذا الصنف من الناس موجودون فى كل زمان لا سيما فى زماننا ما أكثر هؤلاء الذين يطعنون فى حدود الله وأحكامه ويتهمونها بالظلم ـ **بل أولئك هم الظالمون** ـ نفوسهم خبيثة منحرفة ألفت الظلم وعافت الحق والعدل وطبائع النفوس كطبائع أجسادها اذا مرضت أنكرت الطيب من الاطعمة والعذب من الاشربة فوجدته مرا فى مذاقها السقيم.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

هؤلاء قوم ابتلوا بكراهية الحق والميل الى الظلم، طغت عليهم شهواتهم وتمكن حب الدنيا من نفوسهم فحب الشهوات أعماهم وأصمهم فلا هم لهم الا الجرى وراء المال والعلو واتباع الشهوات يسقط الواحد فى جهنم من أجل مال حرام يناله أو فرج حرام ينكحه أو منصب يجرى وراءه بسفك الدماء وظلم الابرياء ـ بل أولئك هم الظالمون ـ هذا الاضراب ببل وهذا التأكيد بتعريف الخبر والاتيان بضمير الفصل ضغط على هذه النقطة وبيان أن هذا هو السبب الوحيد الذى أرداهم فى هذه الهوة السحيقة فما كان نفاقهم وشكهم وارتيابهم الا انعكاسا لهذا الطبع الخبيث المتمكن فى قلوبهم تسلطت عليهم شهواتهم حتى أوصلتهم الى كراهية وبغض حكم

الله ورسوله ـ بل اولئك هم الظالمون = ظلموا أنفسهم باتباعهم الشهوات وظلموا غيرهم بأنواع الظلم وظلموا حكم الله ورسوله باتهامه بالحيف والشك فى عدالته فهم بهذه الانواع من الظلم بلغوا أحط الدركات، وذكروا فى سبب نزول هذه الاية أن يهوديا ومنافقا تخاصما فقال اليهودى للمنافق: نتحاكم الى رسول الله (ص) فقال المنافق بل نتاحكم الى كعب بن الاشرف فغلب اليهودى فذهبا الى النبىء (ص) فحكم النبىء لليهودى فخرج المنافق غاضبا لم يرض بحكم النبىء (ص) فطلب من اليهودى أن يذهبا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فذهبا اليه وتحاكما اليه فأخبره اليهودى انهما قد تحاكما الى النبىء (ص) ولكن بشرا صاحبه لم يرض بحكم النبىء (ص) فقال له عمر هكذا يابشر؟فقال نعم. فقال عمر مكانكما حتى أجيئكما فدخل عمر وجاء بسيفه وضرب عنق المنافق وقال هكذا أحكم لمن لم يرض بحكم النبىء (ص) ثم ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله (ص) فقال له ان عمر فرق بين الحق والباطل ومنذ ذلك اليوم سمى عمر بالفاروق لهذا العمل وغيره وحق له أن يسمى الفاروق ثم ان الله تعالى أثنى على المومنين الذين يذعنون لحكم الله ورسوله ويسمعون ويطيعون فأخبرهم أنهم هم المفلحون فقال:

ـ انما كان قول المومنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ـ الآية هذه تبين حقيقة المومنين الصادقين أنهم هم الذين يذعنون لحكم الله ورسوله ويستجيبون اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ويقولون سمعنا وأطعنا لانهم يعلمون أن العدالة فى حكم الله والرسول وكل حكم خلاف ذلك هو الطاغوت وهم قد كفروا بالطاغوت وءامنوا بالله ايمانا راسخا متمكنا فى قلوبهمو الله تبارك وتعالى لم يدع شأنا من شؤون الحياة الخاصة والعامة الا ووضع

لها موازين وقنن لها قوانين لم يترك الناس هملا بل نظم لهم سيرهم في دينهم ودنياهم وحد لهم حدودا لا يتعدونها ووضع لهم معالم ينتهون اليها وسن لهم أحكاما يحتكمون اليها في جميع شؤونهم في السياسة في الاقتصاد في العلاقات الخاصة والعامة في جميع المعاملات حتى معاملاتهم مع أعدائهم بينها وفصلها تفصيلا وشرع اقامة العقوبات والحدود على أهل المعاصي والظلم لردع الناس وزجرهم وشرع القصاص في القتل وفيما دون القتل وقال : ـ ولكم في القصاص حياة ـ ورغب في العفو على من يصلحه العفو ولا يجرئه على الظلم والمعاصي وامر بالعدل والاحسان فأحكام الله عادلة وشاملة لجميع شئون الحياة مسائرة لتطورات جميع العصور لان مشرعها عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ـ والله يعلم وانتم لا تعلمون ـ فأنى للبشر الضعاف الذين تتحكم فيهم الشهوات والاهواء وتطغى عليهم العادات والتقاليد ولا يعلمون عواقب الامور انى لهم ان يستقلوا بوضع الاحكام والقوانين او يعارضوا حكما من احكام الله وهم الجاهلون القاصرون المختلفون المتنازعون المفتونون وقد حذر الله نبيئه ان يفتتن عما انزله الله او بعضه بفتنتهم فخاطبه والخطاب لجميع الحكام فقال : ـوان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك. الآية ـ فما علينا الا ان نثقف نفوسنا بالثقافة الشرعية ونسيرها في الاسلام المستقيم لا نحيد ولا نميل مع الاهواء ولا نقع فيما وقع فيه كثير من أهل عصرنا ممن تثقفوا بالثقافة الغربية فأخذوا في هدم ما لا يوافقهم من الشريعة الاسلامية فشرعوا في تحريف الكلم عن مواضعه واخذوا في تأويلات تتنافى مع روح الشريعة وياباها السياق القرآني وانكروا الاحاديث الصحيحة لانها لا توافق هواهم ـ ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ـ **انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله**

ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا واولئك هم المفلحون

يؤكد الله الخبر بانما ليبين ان المومنين الحقيقيين لا قول لهم الا التسليم المطلق والسمع والطاعة ثم يؤكد الحكم عليهم بالفلاح وهم وحدهم المفلحون فتعريف الخبر بالالف واللام وضمير الفصل كل ذلك تأكيد لهذا الحكم ولهذه الخصوصية بالفلاح لمن سمع واطاع واذعن لحكم الله ورسوله لا يجد فى ذلك ادنى حرج بل يسلم الامر لله تسليما ثم يصدر الله حكما آخر بالفوز لاهل السمع والطاعة والخشية والتقى ويخصص هذا الفوز لهم وحدهم دون غيرهم فيقول ـ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ـ الطاعة هى الاذعان والقبول واتباع الاوامر بطواعيه واختيار واجتناب النواهى كذلك والخشية فيها معنى الخوف والهيبة والتقوى هى مراقبة الله فى كل لحظة وطلب رضاه باتيان ما يرضيه واجتناب سخطه بالابتعاد عما يسخطه والخشية تتضمن مع الخوف المحبة والتقدير ليس مجرد الخوف لانك قد تقول اخاف الاسد ولكنك لا تحبه وتقول اخاف العقرب ولا تحترمها ولا تهابها وهذه المعانى الثلاثة :الطاعة والخشية والتقوى هى عمارة قلوب السعداء فى الدنيا وهى التى يستحقون بها الفوز والظفر يوم القيامة يزحزحون عن النار وينعمون بالدرجات العلا فى الفردوس واولئك هم الفائزون لا الذين ينعمون فى الدنيا بأنواع النعيم ثم ينقلبون يوم القيامة الى عذاب الجحيم وربما يزعم زاعم ان طاعة الرسول (ص) والاحتكام اليه انما كان ذلك مفروضا فى زمانه اما اليوم فأين رسول الله وهذا تمحل وتعنت وجدال بالباطل فان طاعته والاحتكام اليه هى اتباع ما ترك لنا من سنة والاحتكام الى احكامه وهو القائل ـ تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا، كتاب الله وسنتى ـ ويقول الله تعالى ـ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ـ

ولا يزال كتاب الله ولن يزال محفوظا ولن تزال سنة الله محفوظة مدونة مشروحة وقد ضمن الله بقاءهما لنا حتى نرجع اليهما فى جميع أمورنا ونحتكم اليهما فى خصوماتنا، قيض الله لشريعته جهابذة العلماء فقاموا بخدمتها تدوينا وتنقيحا وتعديلا لرواتها وتجريحا ضبطوا احوالهم واخلاقهم وتصرفاتهم واذا شكوا فى راو من الرواة او جهلوه طرحوا حديثه وروايته فهم لا يقبلون الاروايات العدول المعروفين بالصلاح والنزاهة والصدق ولا يوجد هذا فى سائر الشرائع والكتب فلم تسلم التوراة ولا الانجيل من التحريف والتبديل لان هذه الشريعة هى الشريعة الخالدة الباقية ما بقيت الدنيا والناسخة لجميع الشرائع قبلها وليس بعدها شريعة ولا نبيء حتى تقوم الساعة ولو بعث نبيء من انبياء الله ما وسعه الا اتباع نبيئنا محمد (ص) وهكذا روينا واعتقدنا ومن اعتقد غير هذا فهو ضال غاو فالله ربنا ومحمد نبيئنا والقرآن امامنا والكعبة قبلتنا وشريعة الاسلام هى شريعتنا ما جاءنا فيها فعلى الرأس والعين وما كان من وضع الطاغوت فنحن به كافرون والحمد الله رب العالمين.

ـ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن امرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين ـ سياق الآية الى الكلام على المنافقين لتبرز الفرق بين طبيعة المومنين الخلص وطبيعة المنافقين ويتقابل الضدان وكم يزاوج القرآن بين الاصناف من الناس لتظهر الفوارق بين اولياء الله واولياء الشيطان ويظهر البعد بين هؤلاء وهؤلاء وهذا ادعى للاعتبار والانزجار ـ **واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن امرتهم ليخرجن ـ** حلفوا بأيمان مغلظة وبالغوا فى القسم أقصى ما تكون المبالغة ليخرجن اذا أمرهم الرسول (ص) بالخروج الى القتال ـ **قل لا تقسموا ـ** لا تحلفوا فحلفكم

باطل كما تعودتم تحلفون على الكذب فأيمانكم واهية هـى وعدمها سواء ـ **طاعة معروفة** ـ طاعتكم طاعة معروفة فهى باللسان لا بالقلب ولا بالعمل تحاولون ان تستروا نفاقكم بالايمان وامركم مفضوح معروف طاعة باللسان تسفر عن عصيان وتمرد وخروج عن عهدة الامر ـ **ان الله خبير بما تعملون** ـ ان الله بصير بنواياكم ودخائل قلوبكم لا يخفى عنه نفاقكم فأنتم تحاولون ستره بالايمان الكاذبة والله يفضحكم وقد فضحهم الله فى مواضع كثيرة من القرآن ومن ذلك ما اخبر الله عنهم فى سورة البقرة وسورة التوبة وسورة الاحزاب وسورة الفتح وأفرد لهم سورة فى القرآن تسمى باسمهم وما ذلك الا تبصرة للمومنين الخلص حتى لا ينخذعوا بكذبهم ولو حلفوا عليه بأغلظ الايمان ـ **قل اطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ـ أحسن لكم واسلم عاقبة ان تطيعوا الله وتطيعوا الرسول طاعة خالصة كطاعة المومنين الصادقين يمتثلون الاوامر ويجتنبون النواهى ويذعنون للاحـكام لا يبغـون بها بديلا ـ **فان تولوا** ـ الفعل مضارع حذفت منه احدى التائين للتخفيف وهو خطاب لهم ـ **فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين** ـ يظن هؤلاء المتمردون انهم بعصيانهم وتمردهم يمكرون بالنبىء (ص) ويضرونه بذلك فبين الله لهم ان عصيانهم وتمردهم عائد عليهم ولا يحيق مكرهم الا بهم اما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما عليه التبليغ ولا عليه بعد ذلك تبعة شخص عصاه وخالف امره عليه ما حمل من امانة التبليغ وقد أداها كمـا امره الله وعليكـم ما حملتم مـن القبول والامتثال فان عصيتم وخالفتم فانمكم عائد عليكم ـ **وان تطيعوه تهتدوا** ـ وان تطيعوا رسول الله تكونوا مهتدين سائرين على طريق الفلاح والفوز ـ **وما على الرسول الا البلاغ المبين** ـ الرسول ما هو الا مبلغ انما هو مذكر ليس عليكم بمسيطر انما بعث اليكم ليذكركم وليبلغ اليكم ما أرسل به اليكم بلاغا واضحا مبينا لا لبس فيه لئلا يكون للناس على الله

حجة بعد الرسل ثم ان سياق الآيات يرجع الى الحديث عن المومنين فهم العنصر الخير الذى يستحق الاهتمام وهو الذى ينتفع بالخطاب ويصدق بالحسنى فبرقت بشائر النصر والعز لهم.

ـ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبيس المصير ـ عهد قطعه الله على نفسه لعباده المومنين الذين يعملون الصالحات ولن يخلف الله عهده ووعده. وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم والاستخلاف السيادة والتمكن كما استخلف الذين من قبلهم من الذين وفوا الله ما كلفهم به فوفى الله لهم ما وعدهم به والله لا يخلف الميعاد والخطاب أولا وبالذات للرعيل الاول من المهاجرين والانصار ثم يعم بعدهم جميع المومنين فى كل عصر ومصر وقد علم الله أن فيهم من لا ينتفع بالخطاب وهم المنافقون فقال منكم ليستخلص المومنين الصادقين الذين حققوا ايمانهم الصادق بالعمل الصالح فالعمل الصالح مكمل للايمان دلت على ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم فلا ايمان بدون عمل والعمل الصالح يشمل الفعل والترك فمن أتى بالمأمورات واجتنب المنهيات فذلك هو المومن الذى يفوز بحسن العواقب فى الدنيا وفى الآخرة ـ والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ـ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بثلاثة وعود ضمن لهم تحقيقها فى الدنيا قبل الاخرة وهى كلها عون لهم على اصلاح أمر دينهم وعبادتهم: الوعد الاول، التمكين والاستخلاف فى الارض وهو السيادة فيها والسلطة حتى يتمكنوا من اعزاز دين الله

ونشره وقهر كل معارض له يفتن الناس، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وقد استخلف الله قبلهم من أهل الشرائع الماضية أمما أعزها الله بعز الدين وأدال لهم من أعدائهم فنشروا العدل فى الارض وأقاموا الامانة فلتكن لهذه الامة اسوة بهؤلاء الذين أعزوا أمر الله ونصروا أنبياء الله فأعزهم الله ونصرهم الله ـ ولينصرن الله من ينصره ـ الوعد الثانى تمكينهم من اظهار دينهم الذى ارتضاه لهم وهى أمنية كل مسلم، أن يمكنه الله من اظهار دينه واعلاء كلمة الله، وعدهم الله التمكين وهذه اللفظة أصلها من المكان ومعناها تثبيت الشىء فى موضعه حتى يستقر، وعدهم الله أن يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهنا ثلاث اضافات أولها اضافة التمكين لهم لانه لصالحهم وحسن عاقبتهم ثانيها اضافة الدين لهم فكأنه جزء منهم وهم جزء منه فهو روحهم الذى به حياتهم الابدية وفى هذا ما فيه من اثارة الغيرة فى قلوبهم على نصر هذا الدين الذى هو دينهم وبه قوام أمرهم الاضافة الثالثة اضافة الارتضاء لهم فهو الذى ارتضاه واختاره لهم كما قال فى موضع آخر من القرآن ـ ورضيت لكم الاسلام دينا ـ رضينا ياربنا بما ارتضيته لنا وما اخترته لنا خير مما نختاره لأنفسنا وأنت تعلم عاقبة أمرنا وما فيه سعادتنا وفوزنا وما نيل رضاك الا فيما ارتضيته أنت لنا فلك الحمد على نعمة الاسلام ـ **وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ـ وهو الوعد الثالث لهذه الامة التى تقف مع نبيئها وتتحمل فى سبيل نصرته ونصرة دينه ما تتحمل من الارهاق والتذليل والتعذيب، تحملوا ذلك يوم كانوا ضعافا فى مكة يتلقون من طغاة المشركين ما يتلقونه من المعارضة والاذى حتى مات منهم من مات فى العذاب وهاجر منهم من هاجر الهجرة الاولى الى الحبشة خائفين من ملاحقة المشركين وقد استمر هذا الخوف مدة طويلة قبل الهجرة الى المدينة وبعدها بسنوات كما وقع يوم تحزب عليهم الاحزاب ـ وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المومنون

وزلزلوا زلزالا شديدا ـ ثم فرج الله عنهم وحقق لهم ما وعدهم به من النصر وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا ونصرهم بالرعب مسيرة شهر وقد حقق الله لنبيئه كل هذه الوعود فى حياته فكان يقيم شعائر الاسلام وحدوده ويغزو ولا يغزى ويكاتب الملوك فى الجزيرة وحولها يدعوهم الى الاسلام ليسلموا أو يحملهم اثم رعاياهم اذا هم لم يستجيبوا ثم ان الله حقق الفتوحات الواسعة فى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ولا يزال وعد الله قائما لمن حقق الايمان والعمل الصالح ونصر دين الله وقد شاهد المسلمون تحقيق وعد الله فى فترات من التاريخ رجعوا فيها الى نصرة دينه وشريعته فنصرهم الله وأدال لهم من أعدائهم وأعداء الاسلام ثم ان هذا النصر وهذا التمكين يبقى قائما مستمرا ما وفى المومنون بأسبابه وشروط بقائه وهو عبادة ربهم لا يشركون به شيئا ولا يميلون مع الاهواء ولا تفتنهم الدنيا بفتنة الملك وحب التسلط وجمع المال فمن فتن منهم بذلك فقد فسق عن أمر ربه ولم يعد محل وعده فقال تعالى مبينا ومحذرا: **ـ يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ـ** ان هؤلاء الذين تتحقق لهم هذه الوعود الثلاثة لا يشركون بالله صنما ولا هوى فهم يعبدون الله وحده ويسيرون على الخط الذى رسمه لهم يخلصون العبادة لله وحده لا يشركون بعبادة ربهم أحدا لا يتخذون أحبارهم رهبانهم أربابا من دنو الله يحللون ويحرمون ويشرعون لهم كما فعلت اليهود والنصارى ولا يعبدون الاهواء كما يفعل كثير من الناس يتبعون أهواءهم ويتخذونها آلهة من دون الله والتأليه الطاعة والخضوع والاتباع فمن نبذ كلام الله وسنة رسوله واتبع هواه فقد عبد الهوى واتخذه الاها من دون الله ومن تمسك بما وجد عليه آباءه ونبذ ما جاء به كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اتخذ الهوى الها من دون الله وأشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا فالشرك ليس مقصورا على عبادة الاوثان فقط بل هو أوسع من ذلك ومن

الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل فلنحذر جميع أنواعه الجلى منها والخفى ولنخلص عبادتنا لربنا وحده ولنتبع الحق الذي جاءنا في كتابه وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم **ـومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ـ من استحب الكفر على الايمان والضلال على الهدى بعد هذه الوعود الربانية واستحب الحياة الدنيا على الآخرة فأولئك هم الفاسقون هم الخارجون عن ملة الاسلام وهذا تحذير كبير وانذار من الله لعباده أن تلهيهم مفاتن الحياة الدنيا فيفتتنوا بزهرتها عن دين الله الذي ارتضى لهم وهذا ما وقع للمسلمين فتح الله عليهم الدنيا فافتتنوا بها فكان ذلك سبب هلاكهم وانتقال الدولة من أيديهم الى أعدائهم وما كان ينبغي لهم بعد الذي رأوه من تحقيق وعد الله لهم وبعد تحذير نبيئهم اياهم من الافتتان بزهرة الدنيا ما كان ينبغي لهم أن يصيروا الى ما صاروا اليه وفي الآية تأكيد الحكم بالفسق وحصره في الكافرين بعد الايمان وبعد الذي تقدم من التحذير والبيان وذلك يظهر في تعريف الخبر بالالف واللام والاتيان بضمير الفصل قبله. **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون** ـ يكرر الله تبارك وتعالى أمره بهذين الركنين العظيمين من الدين ويقرنهما معا في نسق في مواضع كثيرة من كتابه الكريم وما ذلك الا لأنهما الدعامتان القويتان اللتان ينبني عليهما بنيان الاسلام فلا اسلام يتحقق بدون الصلاة والزكاة والنبيء صلى الله عليه وسلم يؤكد الامر بذلك فهو يأمرنا ان نامر اولادنا بالصلاة لسبع ونضربهم عليها لعشر ويأمرنا باخراج الزكاة حتى من الاولاد اليتامى وان نتجر فيها حتى لا تأكلها الزكاة فهما الركنان اللذان يلزمان الموحد منذ صغره وفي حداثة سنة فلا ايمان ولا اسلام بدون صلاة وزكاة وان ادعاه كثير من الناس وممن يتخذون الصلاة هزؤا والزكاة مغرما فهم لا يعرفون الصلاة ولا الزكاة وكثير منهم ما ركع لله ركعة ولا سجد سجدة ويدعون الاسلام فأنى لهم ما يدعون وهم

للصلاة تاركون وللزكاة مانعون يخبرنا الله ان رحمته فى الدنيا والآخرة انما هى للمصلين الذين يقيمون صلاتهم ويؤدون زكاتهم كما علمهم الله ـ واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة لعلكم ترحمون ـ يأمرنا باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وكيفية ذلك مبسوط مبين فى مواضعه فاننا متى فعلنا ذلك رجونا رحمته ورحمته وان عمت الخلق فى الدنيا ولكنها فى الآخرة تخص اهل طاعته كما قال ـ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ... الآيات ـ فهم وحدهم يستحقون رحمة الله الدائمة

ـ لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبيس المصير ـ

نزلت هذه الآية والذين كفروا يومئذ اقوياء فربما يخامر الشك بعض ضعفاء القلوب كيف يتحقق وعد الله وكيف يدال للمسلمين عليهم فثبت الله عباده المومنين وأخبرهم أن الكفارلا يعجزون الله فى أرضه فهم لايزنون جناح بعوضة فى قدرة الله ولكن الله يبلو المومنين بهم ليتخذ منهم شهداء وليمحص الله الصادقين منهم ويبلو الكافرين بالمومنين ليستحقوا مصيرهم من النار ولبئس المصير فهم يوم يصيرون الى عذاب الله لا ينفعهم ما كانوا تتمتعوا به فى دار الدنيا من الغلبة والسلطان وما جمعوه من اموال يؤكد الله بؤس هذا المصير تخويفا للمومنين ان يصيروا اليه ان هم تركوا ما أمرهم الله به او ارتكبوا ما نهاهم عنه ولا يزال ربهم يعلمهم ويرشدهم الى ما فيه صلاح مجتمعهم وصونه من اللوث والفساد لان الله يريد ان يخرج منهم خير امة اخرجت للناس وفى الآية تثبيت للمومنين أن أقيموا شعائر دينكم ولايمنعكم الكفرة من اقامتها والله معكمو هم لا يعجزون الله.

ـ ياأيها الذين ءامنوا ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الايات والله عليم حكيم

واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم ءاياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم ـ بعد ان ذكرنا الله تعالى بما ذكرنا به ووعدنا بما وعدنا به ان نحن اقمنا شعائر الله ابتغاء وجه الله يرجع بنا الى بقية الاحكام التى تتعلق بصيانة الاسر وتأديبها باداب الاسلام العالى وهذه طريقة القرآن البديعة فهو بدع من الكتب يخلل الاحكام والقوانين بالوعظ حتى يمكن بذلك فى قلوب المومنين خلق المراقبة والتقوى فيطبقون هذه الاحكام خوفا من الذى لا تخفى عنه خافية وطمعا فى رضاه وجنته اما كتب القوانين فهى تسردها سردا جافا لا يتخللها شىء من التذكير معتمدة فى ذلك على زجر الناس بسياط الحكام وسيوف الجلادين وشتان بين الطريقتين ويا بعد ما بين الفريقين ولما كان المومنون يراقبون الله فيما يفعلون ويذرون يسيرهم ايمانهم الذى تمكن فى قلوبهم ناداهم الله باسم هذا الايمان فقال ـ **ياأيها الذين ءامنوا ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات** ـ يوجه الله الامر الينا لان أمر عبيدنا وأولادنا قبل بلوغهم يتعلق بنا فنحن المسئولون عليهم وهم رعيتنا وكل راع مسؤول عن رعيته وهؤلاء العبيد والاماء خدم فى البيوت وكذلك الاولاد فهم يترددون عليها دخولا وخروجا فوضع الله لدخولهم علينا حدودا وآدابا لابد بمراعاتها لان الاوقات تختلف فهنالك ساعات لا يكون فى دخولهم بغير اذن حرج وهنالك ساعات لا يليق فيها ذلك فبين الله العليم الخبير هذه الاوقات التى نأمرهم فيها بالاستئذان قبل الدخول علينا وان كانوا من أهل بيوتنا وذلك فى ثلاثة اوقات ـ **من قبل صلاة الفجر** ـ حدد الوقت بالصلاة لان المومن طبعه وديدنه يقوم عند الفجر للصلاة ولا يعقل ان يتركها ومن يتركها ليس بمومن

ولا ينتفع بالخطاب فالمومن يقوم للصلاة وبعد ما يؤديها يتشمر للعمل والكد ولا يرجع الى حالة الاسترخاء بعدها ـ **وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة** ـ وكذلك اعتاد الناس ان يدخلوا الى مضاجعهم بعد منتصف النهار يأخذون قسطا من الراحة لا سيما فى البلاد الحارة يقيلـون ثم ينهضون بعدهـا ليستأنفوا أعمالهم فى المساء وبعد صلاة العصر ـ **ومن بعد صلاة العشاء** ـ ويحدد هذا الوقت ايضا بصلاة العشاء لان المومن لا ينام قبل تأديتها وقد صح الحديث بالنهى عن النوم قبل صلاة العشاء والسهر بعدها هذه اوقات خاصة نكون فيها على حالات خاصة فالواحد منا اذا خلا فى مضجعه ومع زوجته يتخفف فى لباسه فهو فى مخدعه فى حالة غير الحالة التى هو فيها خارجه وقد عبر القرآن بهذا فقال ـ وحين تضعون ثيابكم فالواحد منا اذاك يضع ثيابه ولا يترك الا ثوب النوم الخفيف الذى لا يرضى ان يراه فيه احد الا زوجته وهى الاخرى كذلك تكون فى مثل حالته وهى اوقات النوم والنائم يكون فى اوضاع غير عادية فربما يتقلب فى فراشه فتنكشف عورته ولذلك عبر القرآن عن هذه الاحوال بالعورات فلا يليق باحد منا ان يدخل عليه أحد ولو ولد صغير وهو فى تلك الحالة المكشوفة او فى وضع لا يليق فهى اذن عورات والعورات يحرم النظر اليها فلا يجوز الدخول حينئذ الا باذن اما فى غيرها من الاوقات فجائز للعبيد والاولاد الذين يسعون فى خدمة شئون البيت الدخول ـ **ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن** ـ لا حرج عليكم ولا عليهم فى غير هذه الحالات ان يدخل عليكم من يسعى فى خدمة البيت من العبيد والاماء والاولاد والحفدة لان المرأة فى البيت تكون فى لباسها الساتر وفى مزاولة خدماتها البيتية والرجل اما يكون خارج البيت او داخله فى لباسه الساتر وهيئته العادية فلا حرج حينئذ عليه ولا على الداخل من فتيانه واولاده بل الحرج فى تكرير الاستئذان فى كل مرة من المرات الكثيرة التى يترددون فيها على شئون الخدمة داخل

البيت وخارجه ـ **طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الايات والله عليم حكيم** ـ هؤلاء الخدم والاولاد يطوفون عليكم فى خدمة ما تكلفونهم به من الاعمال والخدمات فلا يضيق عليهم فى غير هذه الاوقات الخاصة والله عليم بغرائز النفوس وطبائع القلوب وما يصلحها وما يفسدها حكيم يضع الاشياء فى مواضعها ويضع قواعد الآداب واسس الاخلاق الكريمة التى تنبت نباتا فى نفوس الاولاد منذ صغرهم وتصلح الكبار والله يعلم وانتم لا تعلمون فالخير كل الخير فى اتباع اوامره واجتناب نواهيه والشر كل الشر فى المخالفة والعصيان ـ **واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم ءاياته والله عليم حكيم** ـ وعند بلوغ الاطفال الحلم يفرض عليهم الاستئذان دائما وفى كل وقت عند الدخول ولو على آبائهم وامهاتهم كما فرض على الذين من قبلهم ممن ورد حكمه فى الآيات السابقة وهى آيات الاستئذان وبلوغ الحلم يكون بعلامات البلوغ وهى نبات الشعر من ثلاث فصاعدا فى العانة او فى الابط وخروج المنى بالاحتلام او غيره، وتكعب الثدى فى الانثى خاصة ويكون البلوغ بالسنين كما هو مبسوط فى كتب الفقه فى مواضعه وعند البلوغ يتحمل الابن او البنت جميع تكاليف العبادة ويحرم التفريط فى امر الصلاة والصوم وقد امرنا النبىء (ص) ان نأمرهم بالصلاة فى سن مبكرة فقال ـ مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر ـ هذه احكام الله مبسوطة فى آياته فلا يحيد عنها الا ظالم أعمى الله بصيرته و لم يرد هدايته والله عليم بمن هو أهل للاهتداء يقف عند حدوده لا يتعداها عليم بما يصلح الفرد والجماعة عليم بنوازع النفوس وميول الاهواء حكيم يشرع من الاحكام ما يصلح به أمر دينكم ودنياكم وما ان اتبعتموه كنتم على نور من ربكم خير أمة أخرجت للناس لا تضل ولا تشقى ـ **والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات**

بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ـ فى الآية حكم خاص بقواعد النساء وهن اللاتى أيسن من المحيض فى سن الستين رخص الله لهن أن يضعن جلابيبهن ويبقين فى ثياب ساترة محتشمة وهن غير متبرجات بزينة لا يلبسن اللباس الواصف والمشمر والكاشف ولا يتزين بأنواع الزينة التى يتزين بها النساء عادة كالحلى والحناء والزعفران وغير ذلك مما يظهر زينة المرأة ويفتن الرجل رخص الله لهن أن يضعن عنهن الجلابيب التى ربما تثقل عليهن أو يتعثرن بها وهن ضعيفات لكبرهن وعجزهن وبعد هذا الترخيص النى تقتضيه رحمة الله بالضعفاء رغبهن فى التستر والحجاب لانه خير لهن وأسلم للرجال من فتنتهن لانه كما قيل: ـ لكل ساقطة لاقطة ـ فربما تبقى مسحة جمال على بعضهن فتتحرك بها بعض النفوس المريضة فان استطعن وخف عليهن الحجاب فهو خير لهن وأقرب الى العفاف ـ **والله سميع عليم** ـ عقب الله الحكم بهذه الآية المناسبة لان الناس فى مثل هذه الحالات لا يسلمون من الاحاديث فى التعليق على ما يشاهدون ويشعرون فتجرى كلمات على ألسن البعض أو تحدث البعض نفوسهم اثر منظر يرونه أو كلام يسمعونه فحذر الله من ذلك وذكرنا باحاطة علمه بالخفيات مما يتهامس به الناس أو توسوس به النفوس فهو سميع بما يخفى وما يعلن من الكلام عليم بما يجول فى النفوس من الوساوس والاهواء فليحذر المومنون سمعه الشامل وعلمه المحيط وجزاءه العادل وليراقبوه فى السر والعلن مراقبة من يخشى ربه ويخاف عذابه المحذور.

ـ ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على انفسكم أن تاكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت امهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس

عليكم جناح أن تاكلوا جميعا أو اشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تعقلون ـ ذكر العلماء فى تفسير هذه الآيات وجوها من المعانى منها أن الحرج المنفى فى هذه الآية عن الاعمى والاعرج والمريض هو نفس الحرج المنفى عن الاعمى والاعرج والمريض فى سورة الفتح وهو نفى الحرج عنهم فى القعود عن الخروج الى الجهاد كما نفى عنهم ذلك فى سورة الفتح والمعنى هنالك ظاهر وهنا أيضا قبل هذه الآيات كان تكلم عن الخروج حيث يقول : ـ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن امرتهم ليخرجن ـ فناسب أن يتكلم هنا فى عذر المتخلفين أصحاب الاعذار حتى يسكن ما فى نفوسهم من التخوف والتحرج رحمة بالمومنين الصادقين والعجزة الضعفاء ومنها أن الحرج المنفى عنهم هو نفس الحرج المنفى عمن ذكر بعدهم فى هذه الآية وهو متعلق بالاكل وذلك بالرجوع الى سبب نزول الآية وهو أن الصحابة رضى الله عنهم تحرجوا من الاكل بعد نزول قوله تعالى: ـ ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل ـ وفى مقدمتهم أصحاب الاعذار الذين يخلفون أصحاب الاموال فى المدينة عند خروجهم الى الجهاد فيحرسون أموالهم ويقومون عليها وربما يأكلون فى بطونهم من الثمار والزرع والطعام أثناء قيامهم عليها فتحرجوا من ذلك وكذلك سائر الصحابة فى سائر الاحوال ربما يزور الواحد منهم احد أقاربه فيقدم لهم من فى البيت من النساء والاطفال والعبيد طعاما ورب المال غائب فتحرجوا من ذلك كثيرا فنفى الله عنهم الحرج لان مثل هذا يقع كثيرا والناس يبادرون بتقديم الاكل للزائر وهو من الكرامة وحق على المزور أن يكرم زائره والاقارب يتزاورون فيما بينهم وكذلك الاصدقاء فنفى الله الحرج على المومنين فى الاكل من بيوت أقاربهم وحدد هؤلاء الاقارب ولم يغفل ذكر الصديق لان للصداقة حقوقا لا تقل عن حقوق القرابة وهؤلاء الاقارب معروفون بتعريف

الآية واستشكل البعض قوله: ـ **أو بيوتكم** ـ قالوا كيف وهى بيوتنا هل فى الاكل منها حرج؟وأجاب الآخرون أن المقصود منها بيوت أبنائنا وبناتنا لان بيوت أولادكم هى بيوتنا ومالهم هو مالنا ولانهم لم يذكروا بعد فى تفصيل الاقارب وهم أولى !لاقارب بالذكر والمعنى وجيه ومقبول وقوله تعالى ـ **أو ما ملكتم مفاتحه** ـ ذكر المفسرون أنهم هم الوكلا الذين يستخلفهم أرباب الاموال على أموالهم وزروعهم وطعامهم عند خروجهم الى الجهاد أو الحج أو طلب الرزق ويوصونهم بالانفاق على أهاليهم والمحافظة على أرزاقهم فأذن الله لهؤلاء المستخلفين فى الاكل فى بطونهم بالمعروف من غير اسراف أو تضييع كما لو كانت أموالهم يأكلون منها عند مباشرة القيام بمعالجتها وهم يتصرفون فيها بما يصلحها وبما يصلح شأن عيال المستخلف صاحب المال وذلك رفقا من الله بهم. ـ **أو صديقكم** ـ وهو الذى تربطه بأخيه صداقة متينة وقليل من الاصدقاء من تبلغ بهم صدق المودة الى رفع الكلفة والحرج فى التصرف بمال صديقه فى غيبته أخذا وعطاء كما لو كان حاضرا ولما كان هذا النوع قليلا أفردت صيغته بينما جمع الاصناف المتقدمة كلها وفى هذا ما فيه من التنبيه للناس أن لا يغتروا بمجرد التعارف والصداقة العامة فيحملهم ذلك على التدلل فى أموال الناس فيقعون فى السرقة وهم لا يشعرون وقد ذكر العلماء لدلالة الاصدقاء على أصدقائهم شروطا لا تتوفر الا فى القليل من خلصاء الاصدقاء منها أن ترتفع الكلفة مطلقا فلا يشعر أحدهم بالخجل عندما يجد صديقه يأكل من ماله بل يسر لذلك سرورا عظيما كما روى عن الحسن البصرى أنه دخل بيته فوجد جماعة من أصدقائه وقد أخذوا طعاما من تحت سريره وهم يأكلونه فسر سرورا عظيما وقال: هكذا وجدناهم يفعلون، يشير بذلك الى أصحاب النبىء صلى الله عليه وسلم وذكر عن بعضهم أنه اضطر لشىء من النفقة فقصد احد اصدقائه فوجد امته فأمرها ان تناوله كيس

مولاها ففعلت لما تعلم من عمق الصداقة التى بينهما فأخذ منه حاجته فرده اليها فلما قدم سيدها اخبرته بذلك ففرح فرحا عظيما وقال لها : أنت حرة لوجه الله وذلك مكافأة لها على مساعدتها لصديقه فاذا بلغت الصداقة هذا المبلغ من صدق المودة فالتدلل والتصرف حينئذ جائز بينهما لان كل واحد منهما يرى ماله مال أخيه لا يجد فى نفسه غضاضة من تصرف أحدهما فى مال الآخر ـ **ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعا او اشتاتا** ـ فى الآية رفع الحرج عن أكل الناس بعضهم مع بعض أو متفرقين وكانوا تحرجوا من الاكل جميعا ومن اناء واحد وفيهم العميان والضعاف وخافوا أن يكون لبعضهم ما لا يكون لاخيه من جيد الطعام أو فضله فيحاسب بذلك فنفى الله عنهم الحرج فى ذلك مما يكون منهم من غير قصد والمومن يأكل بأدب ورفق ويأكل مما يليه ولا يحمله جشع النفس أن يستخلص لنفسه أطايب الطعام مما يلى أكيله سيما ان كان من أهل العاهات بل يوفره لهم ويرفق بهم ونفى الله الحرج فى الاكل أشتاتا أى متفرقين كل فى انائه وقد يستحسن الناس ذلك فى بعض أنواع الطعام ويكون أرفق بهم والآيات تطبع قلوب المسلمين بطابع السماحة والسخاء فلا تشاحح ولا تشاجر ولا تنازع بل الكل متسامحون متحابون قلوبهم طيبة يحب الواحد ما يحب لأخيه ويسعى فيما يسره ويرضيه وقد يبلغ صدق الاخوة بينهم أن يأكل أحدهم من مال صديقه وفى بيته ولا يجد أحدهم فى نفسه الا الرضا والسرور وهذه من أعظم القربات ولا يزال سياق الآى مستمرا فيما يثبت الاخوة بين المومنين ويشيع المودة بينهم ويجعلهم كالبنيان المرصوص لا يتخلله الضعف فجاءت الآيات التى بعدها تعلم الجماعة الاسلامية حسن الادب ولزوم الطاعة لامامها فقال تبارك وتعالى: ـ **فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون** ـ هذه الآية امتداد لما قبلها فهى تأمر هذه الجماعة

المسلمة المتحابة التي يسودها التوادد والتآلف أن تفشي السلام فيما بين أفرادها فهم يدخل بعضهم على بعض تحيتهم السلام كتحية بعضهم لبعض في الجنة تحية من عند الله فكم شرفتها هذه العندية تحية مباركة كثيرة الخير والبركة تحية طيبة تسود مجتمع الطيبين تطيب قلوبهم وتطمئن من خواطرهم فهو عنوان الامن والسلام في الحضر والسفر يلقيها الناس بعضهم على بعض ويردها بعضهم على بعض فيسود الوئام ويرتفع الجفاء والخصام وتزول الوحشة فما أعلاها وما أحلاها من كلمة وما أخيب من يستبدل بها كلمات أخرى من تحايا أهل الغفلة والاعراض، عجبا لهم كيف يعرضون عنها الى غيرها من الكلمات كأنهم يخجلون أن يوصفوا بما يوصف به أولياء الله المتمسكون باسلامهم والمسلمون يعتزون بكل ما يمت الى الاسلام بصلة لان قلوبهم مفعمة بحب الاسلام والمسلمين فهم يجهرون بها في مجامع المسلمين الذين يستحقونها ولا يحيون بها الكفار لانهم ليسوا أهلا لها وفي الآية نكتة لطيفة وهي قول الله تعالى : ـ **فسلموا على أنفسكم** ـ في اضافة السلام وهو من عند أنفسنا الى **أنفسنا** فيه ما فيه من اللطف ومزج أرواح المسلمين حتى كأنها نفس واحدة وزعت على أجساد شتى فاذا سلمت على أخيك فقد سلمت في الحقيقة على نفسك لانك أنت وهو نفس واحدة في جسدين عواطفكما وايمانكما ورغبتكما واحدة ولأنك حين تسلم على أخيك يرد عليك السلام فقد سلمت على نفسك بواسطة أخيك فتبركتم بالسلام جميعا وفزتم برضا ربكم وغنمتم الحسنات فالمسلمون اذ يسلم بعضهم على بعض انما يسلمون على أنفسهم لانهم جسد واحد ـ **كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تعقلون** ـ أي بمثل هذا البيان السالف يبين الله لكم الآيات التي ترشدكم وتهديكم لما فيه سعادتكم في الدنيا وفي الآخرة لعلكم تعقلون أحكام الله وتعملون بها وكثيرا ما يعلق الله أحكامه على العقل والعلم والتفكر ويمدح هؤلاء الصنف من الناس

الذين يستعملون عقولهم ويذم الذين لا يعقلون ولا يعلمون ونعمة العقل في الانسان نعمة عظيمة ينبغي ان يستعملها ولا يغفلها فانه متى استعملها ادرك حكم الله في هذه الاحكام فان الله يريد من المجتمع المسلم ان يكون مجتمعا متماسكا مترابطا يكثر بين افراده التزاور وتبادل المودة والتهادى وافشاء السلام فان في هذه الكلمة المباركة معنى السلامة من الآفات ومن كيد الشياطين من الانس والجن فلننشرها بيننا تقربا الى الله بنية العبادة لا بمجرد الالف والعادة حتى ننال الاجر العظيم بافشائها والبركة الشاملة والحفظ والسلامة وحتى تلتحم المودة بين افرادنا ومجتمعاتنا وترتفع الوحشة والجفاء وحتى يكون مجتمعنا يشبه مجتمع الملائكة الاطهار تسوده الروحانية ولا تطغى فيه المادية وهذا ما نستفيده ونعقله من هذه الآيات وكل كلام الله نور وهدى ثم ينتقل بنا سياق الآيات الى نوع آخر من الادب العالى وهو ادب الرعية مع امامها وعند انعقاد مجامع التشـاور فيقول تبارك وتعالى.

ـ انما المومنون الذين ءامنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه ان الذين يستاذنونك اولئك الذ يـن يومنون بالله ورسوله فاذا استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكـم لواذا فليحذر الذيـن يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم الا ان لله ما فى السموات والارض قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم بعد تبيين الآيات الحكيمة لآداب المجتمع الاسلامى النظيف فيما بين افراده وفى البيوت والاسر والعائلات وسائر العلاقات تنتقل بنا الى آداب الجماعة الاسلامية فى اجتماعاتها الهامة ومع أمرائها ولا بد للمسائل الهامةمن مجالس جامعة لاستعراض الآراء

والتشاور قبل البت فى الامر ولا بد لهذه المجالس من امير يقوم على تنظيم الجلسة وادارة المفاوضات والمناقشات ولا بد ان يطاع هذا الرئيس والا اصبحت المفاوضات فوضى ولا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم فبين الله تعالى فى هذه الآيات الحكيمة صفات المومنين الصادقين وآدابهم فى هذه التجمعات ليقتدى بهم من بعدهم وليلتزموا بها وبين صفات المنافقين وفضحهم ليميز الخبيث من الطيب وليحذر المومنين فى كل زمان مثل تلك الخصال المذمومة فقال ـ **انما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه** ـ جاءت صيغة الآية مفتوحة بأداة الحصر ـ انما ـ لتفيد حصر الايمان فى هذا الصنف من الناس وهم الذين يقدرون لهذه المجالس قدرها لانهم يومنون بالله ورسوله ايمانا خالصا لا يشوبه شك ولا نفاق فهم الذيـن يستجيبون لله والرسـول ويستجيبون لأئمة أمورهم اذا كان امر جامع والتعبير بأمر جامع تعبير معجز جامع لا يمكن لاية كلمة أخرى ان تسد مسده فلله ما اروع اعجاز القرآن والامر الجامع كل امر يهم جماعة المسلمين من امور سلمهم وحربهم وهى الامور العظيمة التى تستدعى جمع اولى الامر للنظر وجمع الاراء والتشاور ثم البت فى الامر وبعد البت استجابة جميع المومنين لامتثال الاوامر الصادرة وتنفيذ المخطط كما تقتضى المصلحة لا هوادة فى ذلك ولا نكول فالاجتماع اذن ضرورى وواجب والانصراف قبل الاذن حرام وخيانة فالمومنون ولو كانت لاحدهم حاجة ضرورية لا يذهب اليها حتى يستأذن ولى الامر وولى الامر مفوض فى الاذن وعدمه ـ **فاذا استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم** ـ فهو يأذن لمن فهم منه ضرورة القيام له عذر لا يقبل التأخير اما من يقبل عذره التأخير فربما يمنعه ويرجئه الى وقت آخر وربما يكون انتهاء الاجتماع قريبا فيرجئه الى نهايته فرئيس المجلس مفوض ثم انه أمر أن يستغفر للمستأذنين ـ **واستغفر لهم الله ان الله**

غفور رحيم ـ فاستئذانهم للخروج من المجلس الجامع نوع من تقصير يحتاج الى الاستغفار من ولى الامر ومن علم الله صدق عذره فالله غفور رحيم وهؤلاء الذين يستأذنون ثم لا ينصرفون الا باذن هم الذين يؤمنون بالله ورسوله فايمانهم بالله ورسوله هو الذى حملهم على الاستئذان وايمانهم هو حبسهم حتى يؤذن لهم فينصرفون أو لا يؤذن فيجلسون فهم لا يحاولون أن ينصرفوا بغير اذن كالمنافقين الذين يترقبون الغفلات ليتسللوا وما ذلك الا لانهم مستخفون بأمر الله ورسوله فهم لا يقدرون هذه المجالس قدرها او هم يبغضونها ويودون ان لا تنجح القرارات التى يتخذها الرسول والمومنون فيها لان هواهم مع الكفار فهم لا يحضرونها الا نفاقا فحذر الله المومنين ان يغفلوا عن جدية هذه المجتمعات او يصدر منهم ما يخالف الآداب مما لا يليق بأهل الايمان فقال تعالى ـ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** ـ هذه الآية نزلت فى حق الرسول حين يدعو المومنين لامر جامع وهى محكمة فى حق خلفائه أئمة المومنين أولى الامر حين يدعون الناس لامر جامع تجب طاعتهم لان المصلحة حينئذ هى مصلحة جماعة المومنين ومضرة التقصير فى الاستجابة ترجع اليهم جميعا فدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كدعاء بعضهم لبعض وكذلك دعاء الذين يخلفونه من بعده فى امور المسلمين يليه فى الاهمية ويكون حكمه كحكمه يجب على المسلمين المسارعة الى استجابته والاهتمام بما يجرى من الاجتماع ويحرم عليهم القيام منه الا باذن ومن حاول التسلل منه فالله مطلع عليه وسيجزيه على عمله شر الجزاء ـ **قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم** ـ هذا تهديد من الله شديد لهؤلاء المتسللين من هذه المجالس بسوارى المسجد او بالناس فيخرجون خفية لاعمالهم الدنيوية او لغير عمل وهم مستخفون بمجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وكأنهم غافلون عن اطلاع الله عليهم

وعن علمه بما في قلوبهم المريضة هؤلاء سيجزيهم الله جزاء سيئا كسوء نواياهم واعمالهم فليحذر هؤلاء المخالفون عن امر الله ورسوله ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم والامر هنا يشمل الامور التي هي الشئون والاوامر وهي ما يأمرنا به الله او يأمرنا به الرسول فكل من خالف الامور او الاوامر مهدد بهذا الوعيد و ـ أو ـ مانعة خلو لا مانعة جمع فهو لا يخلو من عقوبة الفتنة في الدنيا او عقوبة العذاب الاليم في الآخرة وقد يصاب بهما جميعا اما ان يسلم منهما جميعا فلا وهذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين يعنون جالس أحدهما إن ظفرت به وان ظفرت بهما جميعا فذلك أحسن فهؤلاء لا يسلمون من احدى العقوبتين وقد يفنون في الدنيا وينتظرهم العذاب الاليم في الآخرة ان لم يتوبوا وينيبوا الى الله ويخلصوا له وفي هذه الآية وعظ وتحذير للمومنين من مخالفة أمر الرسول (ص) في حياته ومماته فاتعظوا يا اولى الالباب ـ **ألا ان لله ما في السموات والارض قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم** ـ ألا ان الله ملك السموات والارض وما بينهما فملكه عظيم ودائم وعلمه محيط بما ظهر وما بطن قد يعلم ما انتم عليه و ـ قد ـ هنا للتحقيق كالتي سبقتها فهو يعلم ما انتم عليه من احوالكم الظاهرة والخفية لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وسوف ينبئكم بما عملتم ويوم يرجع اليه هؤلاء المتسللون الذين يظنون انهم يخفون عن الله يوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا ليعلموا ان جزاءه لهم عدل لا ظلم فيه فهم يستحقون العقوبة النازلة بهم وبأمثالهم ـ **والله بكل شيء عليم** ـ عليم بأعمال عباده الظاهرة ونوايا قلوبهم الباطنة عليم بمقادير عقوباتهم التي يستحقونها ـ ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تكن

حسنة يضاعفها ويوت من لدنه أجرا عظيم ـ عليم بما يصلح أمر دينهم ودنياهم فهو يشرعه لهم فالتذييل بهذه الآية راجع لكل السورة من أولها الى آخرها لما فيها من تشريعات واحكام وآداب يصلح عليها امر المجتمع المسلم فعلى المومنين ان يثقوا بعلم الله ويطمئنوا الى تشريعه ويتبعوه ويطيعوا الله ورسوله طـاعة من يومن بعلم الله المحيط وحكمته البالغة وجزائه العادل والله نور السموات والارض فالذى يعلم ويعمل على نور من ربه فذلك هو المهتدى وذلك هو المتمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. وصدق الله العظيم، والحمد لله رب العالمين.